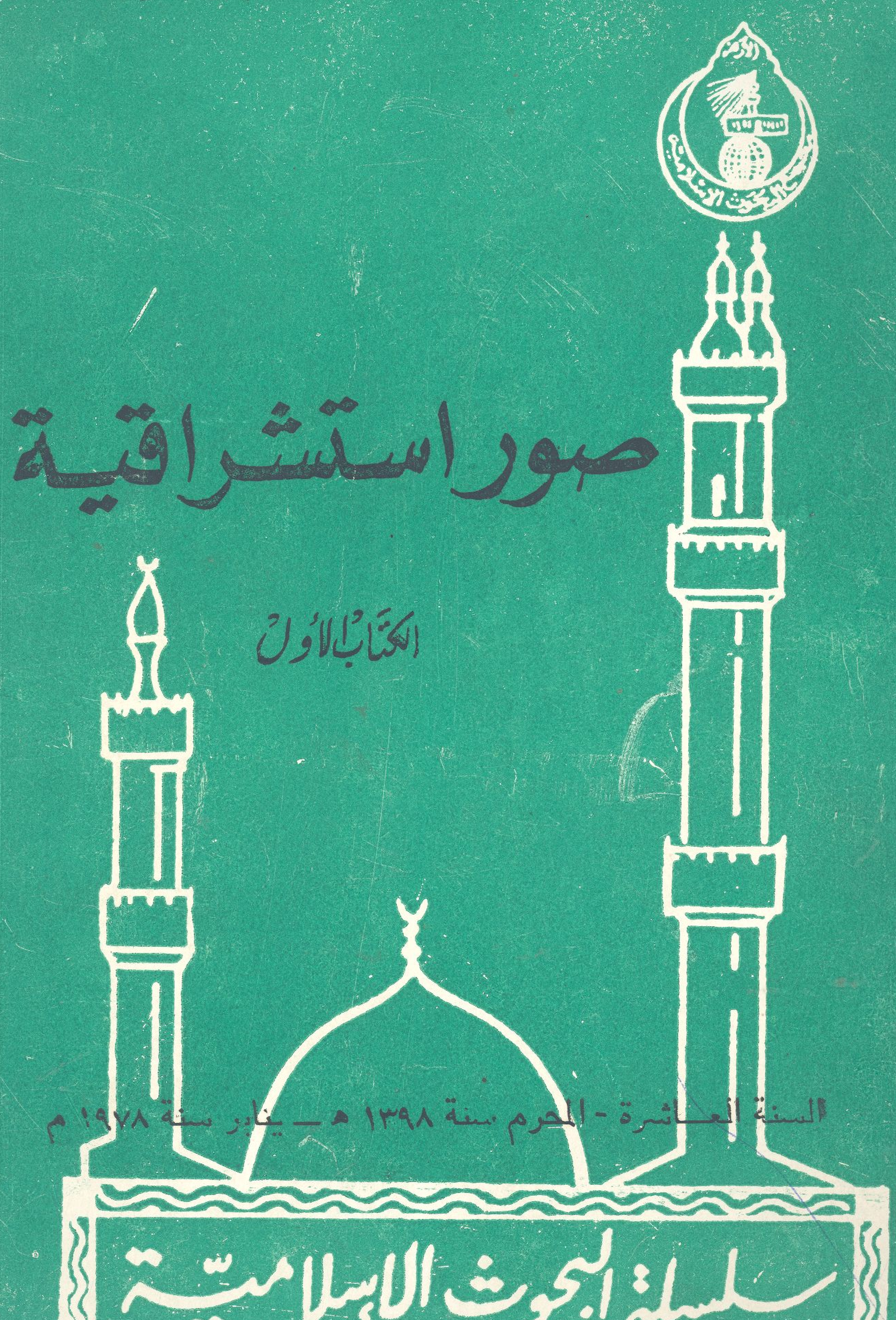
د. عبد الجليل عبده شلبي

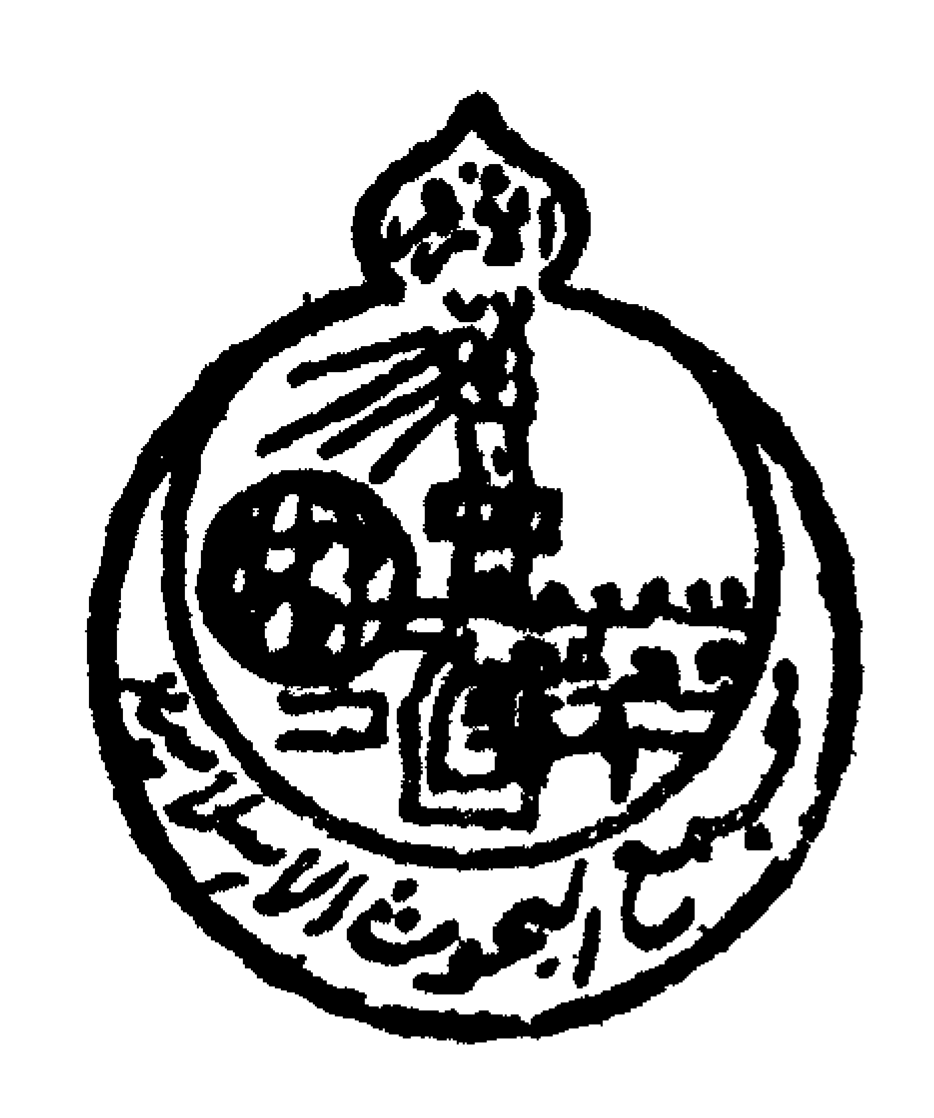
صور استشراقية

الكتاب الأول



السنة العاشرة - المحرم سنة ١٣٩٨ هـ - يناير سنة ١٩٧٨ م

سلسلة البحوث الإسلامية



صور استشراقية

للدكتور عبد الجليل عبده شلبى

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

السنة العاشرة ـ الكتاب الأول

المحرم سنة ١٣٩٨ هـ ـ يناير سنة ١٩٧٨ م

فاتحة الـكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين •
اياك نعبد واياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين
أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين •

آمـــــين •

مقـــــدمة

لفضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهـــر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعـــــد :

فانه لمن الخير أن نقدم للمستشرقين هذه النصائح التى قدمها لهم من قبل المســـلم الفرنسى ناصر الدين ، ونحن نقـــدم لهذه الصور الاستشراقية التى يقدمها لقراء العربية عالم جليـــل هو فضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العـــام لمجمع البحوث الاسلامية ٠

وذلك بما قاله ناصر الدين فى كتابه القيم « الشرق كما يراه الغرب » التى نورد بعضا منها فيما يلى :

- لقد أصاب الدكتور «سنوك هرغرنجه» فى قوله : « ان سير محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق » ٠

- هذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم ، فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة ، التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون الى نتائج لا شك خاطئة ٠

فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل •

يحتاج العالم ، فى القرن العشرين ، الى معرفة كثير من العوامل الجوهرية ، كالزمن ، والبيئة ، والاقليم ، والعادات ، والحاجات ، والمطامح ، والميول ، والأحقاد الخ ••• لا سيما ادراك تلك القوى الباطنة التى لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتى يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات •

لنضرب مثلا عكسيا : ما رأى الأوربيين فى عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التى تكثر عند مؤرخى الفرنسيين ، ويمحصها بمنطقه الشرقى البعيد ، ثم يهدم قصة الكردينال ريشيليو كما نعرفها ، ليعيد الينا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه ؟

ان مستشرقى العصر الحاضر قد انتهوا الى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لصورة الرسول ، ويخيل الينا أنا نسمع محمدا يتحدث فى مؤلفاتهم : اما باللهجة الألمانية، واما باللهجة البريطانية ، واما باللهجة الفرنسية ، ولا نتمثله قط « بهذه العقلية والطباع التى ألصقت به » يحدث عربا باللغة العربية •

ان صورة نبينا الجليلة التى خلفها المنقول الاسلامى، تبدو أجل وأسمى اذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضـئيلة التى صبغت فى ظلال المكاتب بجهد جهيد ، ونرجو أن يعرف العلمـاء ضلالهم ، فيعدلوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التى رفعها التاريخ اقرارا بفضل أنبياء العرب ، وبنى اسرائيل والهنوت على الانسانية ، فان أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعـاول ٠

واذا شاء المستشرقون أن تكون جهودهم مثمرة فلينصرفوا عن اضاعتها فى محاربة المنقول الذى هو أسمى من أن يوازيـه شىء ، الى شرح هذا المنقول واحيائه بدرس نفسية العرب درسا عمليا غير سطحى ٠

كان أحرى بالاستشراق الذى يبنى بحـوثه على الجثث ـــ كما هو شأن طلاب الطب ـــ فى تلك القاعات التى تدعى مكاتب ، أن يقتصر على مباحث التحقيق والعلم النقى الصافى ٠

وهو فى هذه الدائرة ، دائرة الاخراج العلمى ، قد أنجز عملا مجيدا ، نحن على رأس المقرين بحسنه ونفعه ، ولكن لم يبق له فيما يتعلق بشأن الاسلام الا أن يخلى المجال ، ولعله أدرك هذه الحقيقة فأخذ يتوسل بمختلف الوسائل الى تجديد شبابه آخذا بأشد أساليب التاريخ الحديثة عقما ، جادا فى طلب أغرب الآراء وأبعدها عن المعقول ٠

وغاية ما فى الأمر : أنه زاد وجهه تجعدات لم تكن من قبل فيه ، ما أشبه نظرياته ، رغم جدتها الظاهرة ، بكتابات للطلاب فى مباراة الشهادات ، التى لا تكاد تولد حتى يمسها الكبر ، لأنها غير قائمة على درس الحياة ، واذن غير جديرة بها •

وفى نهاية الكتاب الجليل الذى ألفه ناصر الدين عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والذى ترجمناه الى اللغة العربية كتب عن آماله وأمانيه وتوقعاته وتنبؤاته بالنسبة للاسلام ، ومما كتب فى ذلك •

وثبة الاسلام :

عندما رفع الله اليه مؤسس الاسلام العبقرى ، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيا ، وبكل دقة ، حتى فى أقل تفاصيله شأنا • •

وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلها ، وبدأت فى مهاجمة امبراطورية القياصرة الضخمة بالشام • •

وقد أثار القلق الطبيعى المؤقت ، عقب موت القائد الملهم ، بعض الفتن العارضة • الا أن الاسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه ، ومن حرارة ايمان أهله ، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التى لا نظن أن لها فى سجلات التاريخ مثيلا • •

ففى أقل من مائة عام ، ورغم قلة عددهم ، استطاع العرب الأمجاد ، وقد اندفعوا — لأول مرة فى تاريخهم — خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم ، من الهند الى الأندلس ..

وقد شغلت — فى قوة — هذه القصة المجيدة ، تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا — أعنى نابليون — الذى كان ينظر دائما الى الاسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه فى احدى خطبه المشهورة بمصر ، أنه « مسلم موحد » (١)

ويذكر الاسلام فى أواخر أيامه ، فيرى أننا اذا طرحنا جانبا الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب ، فلا بد أن يكون فى نشأة الاسلام سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة ، جعلت الاسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة : أن هؤلاء القوم ، الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى ، قد صهرتهم — قبل ذلك — حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ، ومواهب عبقرية ، وحماس لا يقهر ، أو ربما كانت هذه العلة شيئا آخر من هذا القبيل (٢)

---

(١) عن : ش . شرفيس « بونابرت والاسلام »

(٢) عن : لاس كازاس « مذكرات سانت هيلين ج ٣ ص ١٨٣

ولذلك كان نابليون يعلم أن وراء خمول العالم الاسلامى ، فى فترة الانحطاط ، خزائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة، فحاول — فى مناسبات متعددة — أن يستميل المسلمين الى جانبه ببعض المعاهدات . وكان يؤمن بأنه اذا وفق فى ذلك يستطيع أن يوقظ الاسلام من سباته ، وأن يغير بمعونته وجه الأرض قاطبة.

ولم يكن نابليون مخطئا فى ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقا ، سببا فى اظهار سجايا البطولة عند العرب . . ولكنها — الى جانب ذلك — كانت حجر عثرة فى سبيل كل تقدم ، وكل نظام .. ولولا نبوءة محمد ، لظل هؤلاء الجنود البواسل الى آخر الزمن ، فى صحاريهم لايشغلهم شاغل سوى الفتن المتوارثة.

وجاء الاسلام فوضع حدا للتفاخر بالالقاب والنسب أو الجنس ، وجعل من المؤمنين أخوة حقا ، ونفخ فيهم روحا جديدة كلها مساواة (١) وتقوى وشاعرية . . فما أروع أعمال البطولة التى استطاع هؤلاء القوم ، ذوو النفوس الحماسية ، والقلوب المنيعة ، أن يقوموا بها بعد ذلك ! . . ولم تكن هذه الكنوز من

---

(١) فى الآثار الاسلامية : «ان اكرمكم عند الله أتقاكم». «لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى». « كلكم لآدم وآدم من تراب». «رب اشعث أغبر .. لو اقسم على الله لأبره » « يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئا » . . . الخ .

القوة والحيوية المدخرة ، خلال عصور نقضت فى الحروب الأهلية الطويلة ، هى الذخيرة الوحيدة التى بفضلها دوخ العرب كل هذه الشعوب التى تختلف عنهم كل الاختلاف ، وتفوقهم — فى هذه الفترة — حضارة •• فقد تراكمت فى مخيلاتهم — طوال قرون التأمل بين أحضان الصحارى الشاسعة القاحلة — كنوز أخرى من الأحلام والآمال •• أحلام أمة شابة فتية — وان كانت غير متمدينة — وآمالها • •

وسوف نرى هذه الأحلام والآمال تفرض فرضا على سائر تلك الشعوب التى كانت ثقافتها شائخة منهوكة •

وانا لننصح لمن قد يستريبون فى عبقرية العرب ، بتصفح مجموعة من الرسوم التى تمثل المبانى التى خلفوها منثورة فى جميع أنحاء البلاد الخاضعة لهم ، لا شىء يستلفت النظر مثلما تستلفته وحدة الأسلوب المعمارى التى تميز هذه الآثار عن غيرها من آثار العالم • ومع ذلك فهذه المبانى المتشابهة ، تجدها قائمة فى الهند والتركستان وفارس وتركيا ومصر وشمال أفريقيا وأسبانيا • • الخ أى فى بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ، ولها حضاراتها ذات الطابع الخاص المتميز الذى لم تستطع حضارة أثينا أو روما أن تؤثر فيه بشكل جدى • •

ولقد أخذ العرب كثيرا عن كل تلك الدول المنهزمة ، ولجئوا

فى أحوال كثيرة الى استخدام فنييها ، بل عمالها ، لانشاء قصورهم ومساجدهم ، ولكنهم كانوا دائما لا يحققون بما أخذوا عنها الا أحلاما وأفكارا عربية صحيحة .

والأسلوب المعمارى العربى نجد طابعه العبقرى المبتكر ، فى أنه دائما يسترشد بفن جديدنشأ مع الاسلام، فن لم يكن له مثيل فى الفنون السابقة ، وكان تحقيقا ماديا لمثل العرب العليا ، اذا صح هــذا التعبير . . ذلك هو فن الزخرفة الخطية الذى استخــدم لتمجيد كلام الله — أى آيات القرآن . .

وأن هــذا الفن الخطى العربى ، حتى فى حالة اقتصاره على وسائله الخاصة وحــدها ، لهو من أروع الفنون الزخرفيــة التى تمخضت عنها مخيلة الانسان ، ولعله الفن الاوحد الذى نستطيع أن نقول عنه دون مغالاة ، أن له روحا . . فهو كصوت الانسان ، يعبر عما فى النفس من أفكار . وهولا يستوحى العالم الخارجى — مهما بلغ ذلك العــالم من التنظيم والتنميق — فى شىء . . وهــو بذلك ينتسب الى الموسيقى ، ويبــدو وكأنه رمز لمعان تجيش فى أعماق القلوب . .

انظر الى هــذه الحروف التى تثب من اليمين والشمــال ، فى خطوط أفقية سريعــة ، ثم تدور حول نفسها فى تموجات هادئة أو عنيفة ، وكأنها فى ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفيــة ، ثم

ترتفع ، ثم تتوقف فجأة وتثبت ، فخورة ، في أشكـــال مستقيمـــة متقاطعة ثم اذا بها تعود الى الاندفاع فى جموح ، وتحل ما انعقد من أشكالها ، ويداعب بعضها البعض فى مرح لذيذ ، فيندفع معها الخيال فى أحلام لا نهـــاية لهـــا ٠٠

وليس من الضرورى أن يكون الانسان مستشرقا ممتازا ، أو خطاطا بارعا ، ليدرك عمق الدوافع التى أدت بالقلم الى رســـم هذه الخطوط ٠٠ وليتمتع بالنظر الى أشكالها المجردة ، أو بالتأمل فى العاطفة القوية التى تظهر فى انحناءاتها ٠٠ فكل روح فنانة لابد أن تتصل بالأسباب ــ دون جهد ــ بينها وبين أسرار هذا الفن ٠

ولقد سعى فن الزخرفة الخطية العربية ــ بعد أن أصبـــح تعبيرا صادقا لمثل الأمة العربية ــ الى أن يخضع لاتجـــاهاته ، التى يغلب عليها الطابع الدينى ، كل ما من شأنه أن يعـــين على استكماله ، ووضعه فى الاطار المناسب ، مرغما فن العمارة والنظم الزخرفية الأخرى على ترسم أساليبه وأشكاله ٠ ٠

ولقد خضعت لسيطرته وسلطانه ، قبـــة بيزنطـــه الكروية الثقيلة ، فاتخذت هيئة أشبه ما تكون بهيئة الخوذة العربيـــة ، وتحولت انحناءات رواقها الذى لم يكن فيه شىء من العبقرية ، الى أشكال عربية بالغة الروعة ، بينما اتخذت الطوابى الوضيعة صور المآذن الأنيقة التى ترتفع الى قمم التجلى ٠ ٠

وأخيرا : فان النظام الزخرفى الوحيد الذى يشابه الزخرفة الخطية العربية ، فى كونه لا يستوحى الطبيعة — وهو الزخرفة الهندسية ، ذلك الفن الذى لم يستطع الاغريق واللاتينيون استخدامه الا فى أشكال ضئيلة لا روح فيها — قد دبت فيه بين أيدى العرب حياة جديدة حقا •• وقد أطلق على هذا الفن الزخرفى منذ ذلك الحين اسم له دلالته ، أرابسك •

وراح يتأسى بفن الزخرفة الخطية العربية ، فى البحث عن أعجب ما يبهر الفكر من أشكال عبقرية يحار العقل فى تشابكها الذى لا نهاية له ، وفى تحولاتها المفاجئة ••

يا لها من آيات غاليات خلفها لنا الفن الاسلامى ! •• ان الهواة الغربيين يتنازعون اليوم آثار هذا الفن غير مبالين بما ينفقونه فى سبيلها ، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها — فى بيوتهم المظلمة — بعض انعكاسات الأحلام التى استوحاها الفنانون العرب •• وانه لمجد الاسلام ، يتغنى به فى هذه الديار ما نشهده فيها من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والاشراق •• وانا لنرى الذوق الغربى يتجه الآن الى اقتناء آيات فن الخط العربى الذى — بتقله لكلام الله — ينفخ روحا قوية فى زخارف المصحف ، أو صدف الآنية •

والغربيون — فى ذلــك — يترسمون خطى الأمراء العرب ، أيام عصر الاسلام الذهبى حيث كانوا ، فى سبيل الحصول على صحيفة مخطوطة ، بقلم أحــد الخطاطين المشهورين ، يبذلون مجهودات جنونية نستطيع مقارنتها بتلك التى تبذل فى أيامنا هذه لاقتناء تحف فن التصوير . .

ولكن ! . . أيتها الآيات المقدســة ، التى تبهرين أصحابك الجدد ، وتثيرين اعجابهم العميق بأشكالك المتأنقة الرقيقة ، ألا تكشفين لهم يوما القناع عن سمو جمال روحك الاسلامية ؟ . .

***

هــذا :

ونرجو للشبــاب المسلم أن يعى هذه النصــائح ليضــع المستشرقين فى مكانهم الطبيعى .

وبالله التوفيق ...

عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر

تقــــــديم

هذا عرض لبعض الآراء الاستشراقية ، ودحض لما فيها من مفتريات على الاسلام ونبيه •

ولقد كنت منذ زمن بعيــد مقتنعـــا كل الاقتناع ، بأن كتب المستشرقين عن الاسلام مما يجب الاغضاء عنه ، وعدم الالتفات اليه ، وأنه من الأفضل بــل من الواجب ألا ننقلها الى العربية ، وألا نرد على شيء مما تسيء به الى الاسلام •

وقد رأيت مرة أحد الشبان الجامعيين ، ترجم كتابا لأحــد المستشرقين ، ثم قدم نسخة منه لأستاذه ، فكتب له أنه يرى عدم ترجمة هذه الكتب • وكانت حجته—وقد اقتنعت بها يومئذ—أن فى نقل هذه الكتب الى غير لغتها الأصلية ، ترويجا لها وتشجيعا لمؤلفيها ، كما أن اطلاع شبابنا عليها قد يضللهم ويبلبل أفكارهم فليس كل شاب مسلم له ثقافة وعلم يتمــكن به من رد الشبهات التى يوردها هــؤلاء على الاســـلام ، ودحض المفتريات التى يلصقونها بنهجه جهلا به أو تجنيا عليه •

ظللت على هذا الرأى حينا من الزمن ، ثم طرأ ما حملنى على تغيير رأيى •

رأيت تيار الترجمة لم ينقطع ، وأن كثيرا من هذه الكتب ترجم الى العربية فى كثير من الأقطار •

ورأيت أن شبابنا يقرأون من هذه المترجمات أكثر مما يقرأون من الكتب العربية الأصيلـــة •

ورأيت الكثير من شباب الجامعات يتباهون بذكر أسمـــاء المستشرقين وما عرفوا من كتبهم •

ورأيت أن كثرة من أبنـــائنا العرب يقضـــون أجازاتهم فى العواصم الأوروبيـــة ، يدفعهم الى ذلك قبل كل شىء رغبتهم فى اتقان اللغات الأوروبية ، وهم لذلك يتصلون أول مايهبطون البلد الذى يحبون الذهاب اليه بالمدارس الليلية والحرة ، ويجدون فى مكتباتها الكثير عن الاسلام ، والكثير من تشويهه والطعن عليـــه

ثم اننا وقد عشنا زمنا طويلا تحت سيطرة الغربيين ، ومـــا نزال نعتمد عليهم فى مختلف مرافقنا ننظـــر اليهم نظرة اكبـــار وتقدير ، ونندفع بغير شعور منا وبشعور أيضا — الى تقليدهم ، ونصغى باهتمام الى آرائهم •

كل ذلك سوغ لكتب الغرب وآراء الغرب أن تنتشر بيننا •

وشىء آخـــر ذو أهمية •

ان كتب السيرة الأصيلة ، وكتب التاريخ العربى ، ما تزال

ذات مشقة على طلابنا ودارسينا الناشئين ، فقلما نجد من رجع الى سيرة ابن هشام أو السيرةالحلبية ، أو نهاية الأرب أو طبقات ابن سعد • • • بله تاريخ الطبرى ، والذهبى ، وابن الأثـــير ونحوها ـــ فربما وجدوا قراءة ما كتب المستشرقون أيسر وأجدى

وهناك كتب كثيرة عن السيرة النبوية اخرجها كتاب معاصرون ولكن أغلبها همه أن يسرد حوادث السيره ، وأن يسهل أســلوب عرضها ، وقليل منها عرض عرضا سريعا لآراء المستشرقين •

وأشهر الكتب التى أخرجت فى العصر الحاضر عن الســيرة النبوية هو كتاب « حياة محمد »للدكتور محمد حسين هيــكل ـــ وقد عرض فيه لآراء المستشرقين ، أو بعض آرائهم بوجه عام وخص بالذكر والأهمية أميل در منجم المستشرق الفرنسى، الذى تحدثنا عنه فى هذا الكتيب •

وقد يفهم من كلام الدكتور هيــكل أن درمنجم مســـالم للاسلام •

ثم ترجم كتابه « حياة محمد » الأستاذ عادل زعيتر ـــ فلــم يهتم بالرد على جموحه ومفترياته ، وترك الكتاب بين الناس كما كتبه صاحبــه •

ولعل الدكتور هيــكل ـــ وقد نقــل عن هؤلاء المستشرقين

مادفع به بعضهم رأى البعض الآخر أوهم اجلالهم للنبى محمد واكبارهم للاسلام ، فأغرى بنقل كتبهم • فقد ترجم بعد اخراجه كتابه هذا كتاب ارفخ واشنطون — واسرائيل ولفمسون وكلاهما عنوان حيـاة محمد •

واذن فقد عمت الترجمات ، وشاع بين شبابنا ما كنا نحـذر أن يشـيع •

وازاء هذا لا ينبغى أن ندفن رءوسنا فى الرمال حتى لا يرانا الصائد بل ان الواجب المقدس يحتم علينا — ونحن أعلم بحقائق ديننا — أن ندفع شبهات هؤلاء القوم وأن نبين وجه انحرافهم، وسبب هجومهم على الاسلام •

وفى العام الماضى أخرجت كتاب « الاسلام والمستشرقون » وكان الغرض الأساسى منه دفع ما جاء فى الموسوعة التى تخرجها مؤسسة اليونسكو بعنوان «تاريخ البشرية الثقافى والحضارى» فأضفت الى ذلك شيئا من أقوال الآخرين • وقد نال من الاقبال عليه والاهتمام به ما لم أكن أتوقعه — نوهت به الصحف المصرية وغير المصرية ، وأقبل الناس على قراءته ، كما أقبل الـكتاب على الحديث عنه والتعريف به ، حتى انى كنت أقرأ عنه لكتـاب لم أتعرف عليهم من قبل ، ولم تربطنى بهم صلة الصداقة والمودة ، وهممت مرة أن أكتب لبعضهم شكرا على ما أسبغ على الكتاب

من ثناء ، وعلى اهتمامه به وقراءته فى زمن وجيز ، لكن ثنانى عن الكتابة اليه أنه كتب ما كتب ابتغاء وجه الله وحبا فى الاســـلام وتقديرا للحق فآثرت أن يكون جزاؤهم من الله وحده .

ودل هذا كله على أن الغزو الاستشراقى ضايق الكثيرين ، وأنهــم كانوا ينشــــدون من يدفع هذا الهجـــــوم ويرد عن الاسلام هذه المفتريات .

وفى هذا الكتاب ألممت بأهم الشبهات التى يعتمد عليهـــا هؤلاء وتشيع بينهم ، وقد رأيت أنه بتقــدم الزمن ، وبالدرس الجيد للاسلام ، تتكشف لهؤلاء الغربيين مزايا أكثر للاســلام ، وأنهم يعتمدون على قرائحهم فى افتراض مايتهمون به الاسلام ونبيه، لكن الحجة القوية التى يعتز بها كاتب ما منبينهم يدحضها كاتب آخــر . ويرى أنهــا ليست ذات قــوة ، وربما افترض هو فكرة أخرى واعتز أيضا بها فنقضها عليه ثالث . وكل ذلك يدل على أن القوم لا يزالون يتخبطون فى طغيانهم ويعمهون فى تيــه من الضلال .

وقد تصيد الدكتور هيكل من قبل رد بعض منهم على بعض ، فظن الناس أن هذا الرد تقدير للاسلام ونبيه ، وظنوا أن كاتبه ليس من أعداء الاسلام .

ولم أتعرض هنا لكثرة كاثرة من المستشرقين ، كما أنى لم أتعرض مرة ثانية للمسائل التى تعرضت لها فى كتاب «الاسلام والمستشرقون » وان كانت مذكورة لدى الذين تحدثت عنهم فى هذا الكتاب ، وهذا أمر طبيعى •

ولم أطل الوقوف لدى بعض المستشرقين الذين جاءت آراؤهم عرضا ــ وهذا طبيعى أيضـــا •

عرضت لآراء اميل درمنجم ــ فى كتابيه « حياة محمـــد » و « محمـــد » وأهمها رميه محمـــدا بالصرع ــ وهذه ردهـــا مستشرقون آخـــرون منهم موير ، أما اتهامـــه محمـــدا بأنـــه استقى معلوماته من اليهود والنصارى ومن غيرهم أيضا ــ فهذه نغمـــة مكرورة لدى المستشرقين جميعـــا ، ولكن مصدر هـــذه المعلومات والطريقة التى أتيح بها لنبى الاسلام أن يحصل هـــذه المعلومات مما لا يكادون يتفقون عليه ، وما يثبته واحد منهـــم ازاءها ينفيه الآخر ويوهنه ، مما يدل على أنهـــا جميعا حجـــج داحضة لا اقناع وراءها •

والكتابان اللـــذان أطلت الوقوف لديهما ــ هما ــ « صلـــة القرآن باليهودية والمسيحية »وكتاب « العقل المسلم » •

أما الأول فملىء بالهجوم ، وصاحبه يريد أن يكسو كـــلامه

ثوب البحث العلمى ، وفيه بحوث أو على الأصح تهـم مبتكرة جـديدة .

وأما الثانى فهو مسالم للاسلام ، وليس لصاحبته فيه آراء خاصة كثيرة ، وانما هو نقول عن المسلمين .

وأود بهذا كله أن أكون قـد وفقت فى الدفاع عن الاسـلام وأننى أكون قد أنرت الطريق أمام الناشئين ليردوا به هجـوم الآخرين ، فان يكن ذلك حقا فانى آمل من اللـه سبحانه وتعالى مثوبة لى ، ورضى وحسن قبول ، وان يكن غير ذلك فانى أطمع فى مغفرته جل وعلا بحسن مقصدى ، فما أردت الا الخـير وما تحدثت الا بما أومن به وأعتقد أنه الحق .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيـب .

والحمد لله — وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

علاقة المسلمين بالغرب :

لم تكن علاقة المسلمين بالغرب منذ بدايتها حتى الآن علاقة مودة واخاء ، وانما بدأت علاقة حرب وعداء ، وقد ظلت سيوف الفريقين مسلولة ،ودماؤها لم تجف ، طوال قرون عديدة ، ولكن منذ موقعة مؤتة سنة ٦٢٩ م حتى موقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ أى أكثر من قرن كامل ، كانت الغلبة الحربية للمسلمين ، وكان المسلمون يتوغلون يوما بعد يوم فى بلاد الدولة البيزنطية ، ولم يقف الزحف الاسلامى بعد هذه الموقعة ، بل ظل للمسلمين زحفه آخر عن طريق قبرص وجنوب ايطاليا ، ثم كان للأتراك العثمانيين زحف من الطرف الآخر من البحر المتوسط .

ولما توقف الهجوم الاسلامى بدأ هجوم الغرب فى أسبانيا أولا، ثم فى بقية الأجزاء الأخرى التى اقتطعت من الدولة أو الدول الاسلامية .

وقد تصيد الدكتور هيكل من قبل رد بعض منهم على بعض، ولما يزل لها الى الآن دبيب وكيد خفى ، ومهما يكن من أسبابها العديدة ، فيكفى أنها توجت باسم الصليبية ، وأنها كانت ضد الاسلام .

ثم كان عصر الاستعمار الذى تقلص ظله السياسى ، ولم يتقلص سلطانه المادى .

هذا الموقف العدائى الممتد على طول هذه العصور ، جعل الغرب ينظر الى الاسلام نظرته الى عدو لدود ، وجعله يجهد جهده للبحث عن نقائص للاسلام وعيوب ، ويغضى عن كل ما له من مزايا وآثار طيبة .

وعندما بدأت كتابات المستشرقين عن الاسلام لم تكن كتابة علمية ولا بحوثا تتوخى حقائق التاريخ ، وانما كانت سلاحا من أسلحة الدعاية الحربية ، لذلك حرصت على ترويج أكاذيب ومختلقات عن الاسلام ، وتميزت الكتب التى صدرت خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر بكثير من التهور والاندفاع الذى لا يعنيه الا تحطيم الاسلام ، وقد اعلن القس بيتر المعروف باسم المبجل Peter the venerable أن نقطة البداية فى حرب الاسلام هى القرآن الكريم .

وكان بيتر من أبطال التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، وكان يلوم المسيحيين على مهادنتهم المسلمين ، ويستحثهم على العنف عليهم ، وعملا بالمبدأ الذى رآه قام بحركة نشيطة لترجمة القرآن

الكريم الى اللغة اللاتينية ، وكان الغرض من هذه الترجمة تشويه القرآن أولا ثم الرد عليه وتفنيد ما يترجم منه ثانيا .

وفى منتصف القرن الثانى عشر صدرت أربع تراجم قرآنية ومقدمة بقلم هذا القس ، وكتب أيضا ترجمة لحياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء، حتى عهد يزيد بن معاوية، ومقتل الحسين .

ولم تكن أى من هذه الترجمات القرآنية ترجمة كاملة ، ولا كان تاريخ النبى تاريخا صحيحا ، اذ كان الغرض من هذا العمل هو تنفير المسيحيين والمسلمين على السواء من الاسلام ونبى المسلمين .

وفى هذه الفترة كتب قس آخر من مشهورى رجال الدين المسيحى فى قرطبة ،كان يدعى الجوس قرطبة Elgaus of cordoup بحثا عن حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم أيضا ، وهو ينم عن جهل فاضح ، أو كذب متعمد ، كما تبدو فيه الصبغة المسيحية اذ جاء فيه أن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كان يخبر أصحابه أنه بعد ثلاثة أيام من موته سيرفع الى السماء ، فلما مات بقى بدون دفن حتى يرفع جسده ، ولكنه لم يرفع حتى تعفن جسده ، وأخذت الكلاب تنهش منه . . .

ولم يكن هذا القس يعرف اللغة العربية ، ولكنه اعتمد فى معلوماته على مخطوطة لاتينية عثر عليها صدفة فى مدينة بامبالونا pampalona مما يدل على أن الكتابة ضد الأسلام قد بدأت قبل هذا الوقت •

هذه بداية الكتابة الأستشراقية فى القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر ، ولم تنقطع هذه الروح طوال هذه العصور ، وأن تغيرت طريقة البحث وتفسير الأحداث التاريخية ، تغيرت طريقة البحث وتفسير الأحداث التاريخية ، كانوا متفقين على المبدأ الذى وضعه بيتر وهو البداية بحرب القرآن ، حتى اننا نجد جلادستون Gladstone وزير المستعمرات البريطانية فى القرن العشرين يعلن فى مجلس العموم أنه لن تستقر أقدام الانجليز فى الشرق الأوسط ما دام القرآن يتلى بين الشرقيين •

ولعل حركة العداء التى قام بها الأسبانيون ضد المسلمين ، كانت أعنف وأقسى ما شهد التاريخ البشرى من التعصب الدينى والارهاب ، ويصور جانبا منها ما قام به الكردينال شيمينيه دى سنيروس Ximinenez de Cesnero وكان ذا مكانة ، اذ كان هو الذى تعترف الملكة ايزابلا أمامه ، وكان من أعماله أنه دعا الى اكراه بقايا المسلمين الذين يعرفون باسم الموريسكو على التنصر وترك الاسلام ، ولكى يقطع صلتهم

بالعلوم الاسلامية أشار بحرق كتب المسلمين ، ثم أنشئت محاكم التفتيش لمحاكمة الذين كانوا يمارسون سرا شعائر الاسلام .

وكان بعض المتقربين من أبناء اسبانيا قد انضموا الى هؤلاء وأصروا على الابقاء على اسلامهم ، وهؤلاء لاقوا هوانا وتعذيبا كثيرا ، حتى لقد أصدر الامبراطور فيليب الثانى ١٥٥٦ م قانونا يحرم على بقايا المسلمين فى أراجون كل شىء يربطهم بالاسلام حتى لغتهم وأساليب معيشتهم ، وبلغ من غلوائه أن اعتبر الحمامات التى أنشأها المسلمون بقايا نجسة فأصدر قرارا بهدمها .

فاذا رجعنا الى ما حدث فى البلقان وبلاد اليونان بعد جلاء الاتراك العثمانيين عنها ، وجدنا حالا مشابهة فى تحريم الاسلام والتضييق على المسلمين، ولا يزال بعض المساجد فى أثينا والمجر وأدرنة وغيرها متاحف أثرية لا يسمح بممارسة العبادة فيها .

هذه هى البيئة التي نبتت فيها بذور الاستشراق ، بيئة كراهية وأحقاد .

والذين ما رسوا دراسة إستشراقية لم يمارسوها ليبحث ما فى الاسلام من حقائق ، ولكنهم زاولوها كلون من ألوان الفكر التاريخى ، وهم قد لقنوا من قبل مبادىء وأفكارا خاصة عن

الاسلام ، فهم يبذلون جهدا واسعا لاقامة الأدلة على صحتها ، وعلى غير شعور منهم يخطئون الفهم والاستدلال ، ويحسبون انهم على شيء •

ومما لا ريب فيه أن موقف المستشرقين اليوم قد تغير كثيرا عن موقفهم بالأمس ، ولكن هذا التغير يبدو فى التخلى عن الأكاذيب والاختلافات ، وليس ثمة تخل عن طعن الاسلام وتلمس مواطن للهجوم عليه منها •

وقد جاء فى كتاب :

« دراسة الأديان » The study of Relugions

« لقد صار الاسلام جارا ملاصقا خطرا ، ومن ثم فان سوء الفهم الغربى قد يعزى الى التحامل عليه بقدر ما يعزى الى الجهل به •

« وأن الصور الكاريكاتيرية التى كانت من عمل الغربيين الأوائل ، قد صورت محمدا معتوها دينيا ، أو صاحب هرطقة وتضليل (١) ، وعلى أحسن تقدير صورته مصلحا بدأ بداية حسنة ثم تحول الى مخطط سياسى ورجل فجور منغمس فى ملذاته الجسدية ، ومع كل ذلك نجحت فى اضافتها اليه قيادة موفقة ، وعبقرية وشخصية ملحوظة ، والكتاب المسيحيون الآن بين كتاب

---

(١) الهرطقة : الكفر •

آخرين يشيرون الى حسن طويته وتقواه ، ونبله فى معاملة أعدائه وكونه فريدا فى ورعه وانسانيته » •

وأشار الكتاب الى هـؤلاء الباحثين المسيحيين ، وهم حقـا وصفوه بهذه الصفات ؛ ولكنهم جميعا يفترضونه تلميذا للكتابيين والحنفاء فى عصره ، ويعزون معلوماته الدينية الى مصادر كثيرة ، بعضها لا يصلح مصدرا لأى فكر دينى ، مما يوضح أن التحامل على نبى الاسلام ، وطعن رسالته فى الصميم منها لا يزال نغمة مـكرورة •

موقفنا ازاء هذا التحامـل :

ان القارىء الأوربى لعدم معرفته باللغة العربية ـــ لا يعرف الاسلام الا مما يكتبه المستشرقون ، وهو فى الواقع لا يطلع على حقائق الاسلام ، وانما يطلع على ما فهمه مؤلف الـكتاب الذى يقرؤه عن الاسلام• والمؤلف مهما كانت حاله وصلته بالاسلام هو مستشرق مسيحى أو غير مسيحى لا يؤمن برسالة محمد • وقراءة ما كتب لا تعطى صورة صحيحة عن الاسلام ولا تكشف عن شىء من مزاياه، لهذا يجب أن نقدم نحن المسلمين شيئا عن حقيقة ديننا، لأننـا أعرف به ، وبيننا كتب مؤلفة بالعربية تحوى دفـاعا عن

الاسلام ، وحبذا لو اختار مجمع البحوث منها قليلا أو كثيرا ، لترجمتهالى اللغات الأوروبية .

ولقد رأيت بعض البحوث التى ألقيت فى مؤتمرات هذا المجمع ترجمت الى لغات أوروبية ، غير سائدة، وكان ذلك من عمل بعض المسلمين الذين رغبوا فى اطلاع مخالطيهم على شىء من حقائق الاسلام ، كذلك كان كتاب « الدين الاسلامى » للدكتور غلوش ، و «الرسالة الخالدة» للاستاذ عبد الرحمن عزام، من الكتب التى تلقى استغرابا من قارئيها الانجليز ، وانى آمل أن يكون فى هذه الردودالتى أذكرها فى هذا الكتاب صدى لدى القارىء الاوروبى عسى أن يصحح بها شيئا من الأفكار الاستشراقية التى سبق أن قرأها .

والكتاب الوحيد الذى يمكن أن يستثنى من بين كتب المستشرقين هو كتاب العقل المسلم « The muslem mind » للكاتبة الانجليزية تسارس وادى ، وذلك لأنه كتاب وصفى ، وليس بحثا دينيا أو فلسفيا .

والأفكار التى تشيع فى كتابة المستشرقين بوجه عام ، تدور حول أفكار خاصة أهمها أن محمدا تلميذ للكتابيين من اليهود

والمسيحيين ، وأن القرآن صورة تلمودية ، وأنه كان صدى لما انفعلت به نفس محمد من الأحداث التى واجهها •

وأود أن أعرض بعض هذه المسائل لنرى مدى ما بها من تضليل ، ومدى ما يمكن أن يكون لها من صمود للنقد ، أو تهافت أمام حجج الاسلام •

صلة الاسلام بالكتابيين :

قلما كتب مستشرق عن الاسلام ولم يذكر أن محمدا كان تلميذا لليهود والنصارى ، وأن القرآن صورة تلمودية وصلت الى محمد بطريقة ما • والأساس الذى بنى عليه هذا الافتراض ، هو ما فى القرآن من حديث عن أنبياء بنى اسرائيل ، وعن دعوة المسيح عليه السلام فقد دعا ذلك الى التساؤل عن مصدر هذه المعلومات ، ولأن هؤلاء الكتاب لا يؤمنون بوحى السماء ذهبوا يتلمسون الأسباب ، ويفترضون الافتراضات البعيدة ثم دعا هذا الاعتقاد الى توسع أكثر ، فذهبوا يعزون كل تعاليم الاسلام — سواء فى ذلك عبادته أو قوانينه — الى مصادر سابقة •

وكثيرون من هؤلاء يرون أن الديانتين السماويتين الكبيرتين، مزيج أيضا من ديانات عديدة كانت سائدة فى الشرق الأوسط ، وخاصة فى أرض الهلال الخصيب • وهم يرون أن أفكار الديانة

المصرية قد امتــدت مع فتــوح المصريين حتى انتهت الى أرض
بابل ، ثم امتد الفتح البابلى بدوره حتى وصل الى مصر فهيأت
هذه الموجة ذهابا وعودة ، نشر كل من الديانتين بين سكان الهلال
الخصيب ، وكانت دعوة موسى عليه السلام الى عبادة اله واحد
صدى لدعوة توت عنخ آمــون لعبادة اله واحــد هو الشمــس
واستفاد اليهود أثناء السبى البابلى كثيرا من ديانة البابليــين ،
وحين وفدوا على أرض فلسطين استفادوا من ديانات الكنعانيين
والعمالقة ، ثم امتدت على هذه الارض فتوحات اليونان والرومان
فلونت دياناتها بألوان تناسب فلسفــات هــذه الأمم (١) ، واذا
فاليهودية أولا ، ثم المسيحية ثانيــا ، ليستا ديانتين سماويتــين
خالصتين ، ثم جاء الاسلام فورث هذا الركام كله ، فهو لم يرث
يهودية خالصة ، ولا مسيحية خالصة ، ولكنه فيمــا يرون ألــف
بين جوانب بارزة منها ، وتخلى عما لم تمل اليه نفس محمــد من
المظاهر الوثنية ، والتى تنافى التوحيد المطلق لله رب العالمين .

وهناك تركيز أقوى على الحنفاء الذين كانوا بمكة ، ولم يكن
هؤلاء كثيرين ، ولكن كان هناك ورقة بن نوفل ، وعمرو بن يزيد،
وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث . .وتاريخ هؤلاء

---

(١) انظر فى هذا « فجر الضمير وانتصار الحضارة » لبريستد .

الأربعة معروف ، ولعل محمدا لم يقابل منهم غير ورقة وعمرو •

هذا هو الأساس العام الذى تقوم عليه نظرة المستشرقين الى الاسلام ونبيه ، وهو افتراض تعوزه الأدلة التى توثقه وتجعله فكرا علميا يطمئن اليه البحث العلمى النزيـــه •

وأقوال هؤلاء القوم تضطرب اضطرابا واسعا ــ فبينما يعزو بعضهم عمل محمد صلى الله عليه وسلم الى فكر سياسى محض، يرى آخرون أن فكرة التوحيد ملكت عليه كل مشاعره ا فنفى من اليهودية والمسيحية كل فكر يخـــالفها • وبينما يرى درمنجيم الفرنسى أن بحيرا الراهب هو مصدر هذا الفـــكر ومثاره فى ذهن محمد(١) يتخذ «وات» من قصة بحيرا هذا مثار سخرية ويرى أنها من عمل الرواة الاسلاميين ــ ويجارى درمنجيم من مستشرقى الانجليز «رودويل» و «مرجليوت» وبل وجيوم، وبعض هؤلاء توسع فى افتراضاته حتى أبدى كل مسيحى أو يهودى أو طارىء على مكة والمدينة من ذوى الثقافة والدرس ، وأنه أفاد محمـــدا صلى الله عليه وسلم بشىء ــ حتى انهم يذكرون زوجـــه مارية القبطية وسلمان الفارسى وزوجيـــه جويرية وصفيـــة ــ وأكثر المستشرقين اسرافا فى هذا هما جيوم ودرمنجيم ، ثم جـــاراهم

---

(١) انظر حياة محمد ترجمة عادل زعيتر ص ٣٠

فى هذا د فيليب حتى فى كتابه «الاسلام أسلوب حياة»
« Islam the way of life » ونهج جب فى كتابه المحمدية
Mohammedanism هذا النهج أيضا، وجب يعتبر فى نظر بعض
الأوروبيين متحيزا للاسلام ، كما يعتبر عند بعض الشرقيين ممن
أنصفوه بعض الانصاف ، وغداة نشره كتابه هـذا غضبت بعض
الهيئات اليهـودية ، فلجأت الى الفريد جيـوم فأخرج كتـابه
« الاسلام » « Islam » ونشرته له دار النشر « اليهـودية »
« بنجوين » غير مرة وبيع بثمن زهيد رغبة فى شيوعه وانتشاره •

وفى هذا الكتاب الأخير حملة جديدة على نبى الســلام : اذ
ألقت عليه مسئولية اضطهاد اليهود وتشتيتهم وقتلهم بدون مبرر
ترضاه العدالــة •

وأكثر من هؤلاء جميعا ما كتبته السيدة العربية ابكار السقاف
— وهى سيدة أردنية تعلمت فى باريس وأخرجت كتابا كبيرا سمته
«العقل البشرى فى مراحله التطويرية» وهو يمر بتاريخ الاديان
مرا عابرا • والجزء الأكبر منه يتحدث عن الاسلام، ويرمى النبى
محمدا بأبشع الاتهامات •

وبعد هذا كله ، ما زالت هناك فجوة لم تسد ، وهى الوقوف
على الصلة بين محمد واليهود وبينه وبين المسيحيين •

لم يكن لأى من الديانتين مركز فى مكة حيث نشأ محمد وأعلن نبوته ، وسفره مرتين الى الشـــــام لا يكفى لامداده بكل هذه الثقافة ، فالفكر الاسلامى الذى جاء به محمد يحتاج الى دراسات طويلة وانقطاع للدرس والتحصيل ، على أن اليهود الذين سكنوا بعض الواحات القريبة من المدينة لم يكونوا أسخياء بمعلوماتهم ــ بل ازدروا العرب وضنوا عليهم بالتعليم ــ ويقول فى هــذا درمنجيم :

« كان فى اسنطاعة اليهود الموحدين أن يؤثروا فى عرب يثرب تأثيرا دينيا كبــيرا ، ولم يعقلوا ما عابهم به القرآن من كتــم التوراة ، ولــو لم يعدوا الوحــى أمرا خاصا بأمتهم ، ولــو لم يستخفوا بالعرب المشركين الأميين الذين لم ينزل فيهم كتــاب وهذا صريح فى أن اليهود ضنوا بمعلوماتهم ، فــلا ندرى كيف جادوا بها كل هذا الجود على محمد » .

وأقف لدى بعض من هؤلاء المستشرقين ومن أهمهم : وليم درمنجيم الفرنسى و « فلهلم رودلف الألمــانى » فكل منهمــا بذل جهدا لاستنباط صلة بين محمد وبين الكتــابيين ، وكتب كل منهما ترجمت الى عدة لغــــات ، وكل منهما راجت كتابته بين الشرقيـــين .

وكان الدكتور محمد حسين هيكل قد اعتمد فى كتابه « حياة محمد »على كتاب درمنجيم ، وحين بدأ نشر فصوله فى مجلة (السياسة الأسبوعية) ذكر أن عمله هو الترجمة والتعليق ، حتى أنكر عليه بعض الناس اخراج الكتاب بعد ذلك باسمه ، فكان فى عمله هذا تنويه بهذا المستشرق ، وجذب للأنظار نحو كتابته ولدرمنجيم كتاب آخر اسمه « محمد » (1) لم يقتصر فيه على سرد السيرة النبوية ، بل ذكر شيئا من الآداب الاسلامية والتصوف والفكر الفلسفى الاسلامى ، وفى كلا الكتابين همه أن يؤكد استفادة محمد واعتماده فى رسالته على اليهود والمسيحيين .

وأما كتاب رودولف ، فقد خصصه لهذه الفكرة وسماه « صلة القرآن بين اليهودية والمسيحية » وترجم الى عدة لغات ، واهتم به الشيوعيون ونشرته باللغة العربية دار الطليعة فى بيروت .

وأعرض أولا آراء درمنجم :

آراء درمنجم :

فى كتابه « حياة محمد » عقد فصلا بعنوان : « النصرانية والاسلام » كما صدره بفصل عن سلمان الفارسى ، وفى كتابه

---

(1) Muhamed and the Islamic tradition translated from the French by - Jean M. Watt Men of Wisdom -

من سلسلة رجال الحكمة .

« محمد »عقد فصلا بعنوان « اليهودية والمسيحية » ـ وفى كلا الفصلين بسط الحديث جهد البسط فيما يمكن أن يتصور من صلة بين محمد وبين الكتابيين .

أما عن سلمان الفارسى ، فذكر أنه استفاد من اليهودية والمسيحية والفارسية ، وأنه كان ذا نفوذ حتى استطاع أن يتدخل فى حرب بين المسلمين وقريش ، وهم أكبر مافى المجتمعات العربية فى هذا الوقت . ومعنى ذلك أن هذا النفوذ يسوغ له أن يؤثر فى أفكار محمد صلى الله عليه وسلم (١) .

وقد بدأ حديثه باستعراض اليهودية فى اليمن ومحاولة ذى نواس بتثبيتها هناك ، ثم طرده بواسطة أبرهة المسيحى ، الذى أسس مسيحية مونوفستية هناك ، وحاول غزو مكة وهدم الكعبة ، ، وقد أثار مذهبه الزروشتية الثنائية (٢)

(١) من المعروف أن سلمان لم يكن ذا شأن او نفوذ فى الحروب بين النبى وقريش ـ ولكنه كان احد اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ـ واكبر ماله من اثر هو مشورته بحفر الخندق يوم الاحزاب ـ وهذا لايدل على نفوذ، فقد كان من عادة النبى ان يستشير اصحابه ويستفيد من خبراتهم .

(٢) لاحظ أن الثنائية الزروشتية تخالف الثنائية المسيحية ـ اذ هى تقول بالهين متضادين اله للنور واله للظلام ، اله للخير واله للشر ـ اما المسيحية فهى تجمع للمسيحية اللاهوتية والناسوتية فى شخص واحد .

فقام الفرس بغزو اليمن ، وظلوا بها حتى أجلاهم المسلمون وانتهى الى أن المسيحية كانت تحيط بالجزيرة العربية من كل جهاتها ، فكانت فى مصر وفى الحبشة وفى اليمن، وكانت بين بعض القبائل العربية من لخم غسان وتغلب وبنى كلب ، وكانت القوافل العربية تمر بسكان هذه التخوم وتعرف منها معلومات عن المسيحية ، وكانت مكة مركز تجارة رائجة ، وكان بها مسيحيون منهم جبير بن مطعم الرومى ورفيقه نيسار الرومى وكان محمد يكثر الجلوس لديهما ، وكانت الحيرة مركز مذهب مسيحى آخر ، وكان بنو المنذر من أتباعه ، وكان الشاعر الثقفى أمية بن أبى الصلت يذكر فى أشعاره قصص الأنبياء السابقين وأخبارا من المسيحية واليهودية ، وكان يرجو أن يكون النبى الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة ، كما كان هناك شعراء آخرون يدينون بالمسيحية منهم النابغة الذبيانى وطرفة وامرؤ القيس .

وبجانب هؤلاء المسيحيين كان هناك الحنفاء الذين درسوا المسيحية فأخذوا منها بعضا وتركوا بعضا ، فقد كانت هذه المسيحية مريضة سقيمة ، خالية من الغذاء الروحى الكافى ، فأعرض عنها لذلك هؤلاء الحنفاء .

كذلك كانت الزروشتية معروفة هناك ، لكن لا هى ولا

المسيحية كانت بعيدة عن الوثنية التى عليها الجاهليون •

وقد أتصل محمد بهؤلاء الحنفاء وسمعت أذنه المرهفة ، ووعى قلبه الذكى عن هذه الديانات كثيرا ، ثم كان اختلاؤه بنفسه وعمله فى الصحراء مما زاده رهافة حس ودقة تأمل ، وشغل محمد نفسه بالبحث عن دين يخلو من متناقضات هذه الاديان كلها ، فلجأ الى غار حراء يفكر ويتأمل ، حتى هداه تفكيره الى مبدأ التوحيد المطلق •

اذا نحن جارينا درمنجم فى هذه الفكرة نجد أن محمدا كان رجلا مفكرا مثقفا ، استطاع أن ينخل هذه الأديان ، وأن يستخرج منها هذا الدين الذى جاء به ، وهذا لايكون الا من رجل سليم الجسم والعقل ، قوى الذكاء والتفكير • ولا تأتى الموازنة بين الأديان واختيار الجانب الأفضل فيها الا لمن له دراسة عميقة والمام شامل بهذه الأديان وفلسفاتها — فأنى لمحمد هذا كله ؟

ان المؤلف بصدد اثبات الطريق التى استفاد منها محمد ثقافة وعلما بهذه الأديان — وهو ليثبت ذلك استدل بأنه كان يعرفها ! !

لكن الرجل — وهمه الأول أن يحطم محمدا ورسالته — يعود فيذكر شيئا آخر يناقض هذا الذى ذكر ، فقد جاء فى عرض حال محمد فى هذا الموقف :

« ظل محمد فى خمار أفكاره حتى سنة ٦٤٠ م فكان اضطرابه النفسى قد بلغ غايته ، ولم يعد يحتمل أو يرى قومه يعظمــون الجن والأشباح ويهملون الحقيقة العليــا .

وفى غار حراء استغرق فى تأمله ، حتى صار لا يفرق جيــدا بين تعاقب الليل والنهار ، وبين اليقظة والنوم . . . فكان يخيله اليه أنه يسمع أصوات الحجارة ، وأنها تحييه باسم رسول الله . وبلغ من هذه الحالة أن كان يخر مغشيا عليــه . . . وكان يرى فى منامه شخصا هائلا ، صافا قدميه فى أفق السماء ، باسطا اليــه يديه . . . وأصبح بعد ستة أشهر نحيفا مهزولا ، خائر القوى مضطرب الخطى ، أشعث الشعر واللحيــة . . .

وكان يهيم بين شعاب الجبال ، ويخر مغشيا عليه . . . .

وهكذا يفيض درمنجيم فى هذا الوصف الغريب الذى يصفه محمدا بالهوس والخبال . . .

***

وأول ما يلاحظ على هذا الحديث ، أنه حديث رجل اعمتــد على خياله ، ولم تعنه المراجع التى توثق ما يقول ، وقد استباح أن يخلط الحقائق بالخيالات ، على نحو ما يفعل الروائيون ، وفقا لما ظن أنه كان يجب أن يكون ، وليست هذه طريقة بحث سليم .

أما ما ذكره من أن محمدا كان يصرع ، ويظل ملقى بين الجبال فاقد الوعـــى ، أو أنه بلغ من اضطرابه أنه لا يفرق جيدا بـــين تعاقب الليل والنهار ، وأنه هزل وشحب لونه ، وخارت قواه . . فكل ذلك لا سند له من الروايات ، فضلا عن أن واقع التـــاريخ يكذب ، فالذى يصاب بمثـــل هذا الانهيار الجسدى والعصبى ، لا يقوى على كل هذا النضال المرير الطويل فى سبيل نشر دعوته، ولا يتمتع بمثل هذه الحصانة فى الرأى وسداد التفكير ، ومحمـــد صلى الله عليه وسلم منذ أمره اللـــه تعالى أن يصدع بما أمر به حتى آخر حياته، كان فى جهاد موفق مستمر وكان يمتاز بقوة التفكير وحسن التدبير ، وقوة الذاكرة ، وسعة الحيلة . وهذا مما شهد به المستشرقون أنفسهم، أفكانت هذه صفات رجل مضطرب الأعصاب مهزول البدن ؟ ، أو يقوى مثله ، بعـــد هذه الأوصاف والأمراض على سياسة محمـــد الحكيمة ، وتخطيطاته الحربية ، وتنظيماتـــه الاجتماعيـــة ؟ فاذا كان متهما بأنه استقى كل هـــذه المعلومات من غـــيره ، أفيقوى أيضـــا مثل هـــذا الشخص المضطرب البـــدن والأعصاب على الدرس والتحصيل ، فضلا عن الموازنة بين أشتات الديانات واجادة الاختيار ؟

على أن أكثر المستشرقين عدلوا عن هـــذا الوصف ، ولم يؤيدوا

فكرة الصرع التى توهم بعضهم أن الوحى نوع منها (١) ٠

وأما ما ذكره عن مصادر علمه بالديانات الأخرى ، فقد ذكر فضلا عما قدمنا ، أن عدد النصارى لم يكن قليلا فى ضواحى مكة ، ولا سيما بين الموالى الذين كان يؤتى بهم من بلاد الحبشة ٠ ٠ ٠وقد مال محمد الى هذا الدين الذى جاء به هؤلاء ، ولكن لسوء حظه لم يكن هؤلاء الجهلاء قادرين على تعليمه ، فظل فى حاجة الى ما ينير بصيرته ٠

ويعجب الانسان لهذا المنطق الغريب ، فالموالى الذين أشار اليهم لم يكونوا كثيرين ، ولم يكونوا أيضا على علم بدينهم يكفى أن يتلقاه عنهم متطلع الى فكر ميتافيزياقى ، ويكفى فى الانصراف عنهم أنهم كانوا موالى وعمالا تابعين ٠

ومن بين الحنفاء العرب ركز درمنجيم على زيد بن عمرو وأنه هو الذى زاد شكوك محمد فى دين قومه ، لأنه كان قد أعرض عن عبادة اللات والعزى وليس فى أخبار زيد التى ترويها الكتب العربية شىء يدل على اتصال محمد به ، بل يروى أنه مات قبل البعثة بخمسة أعوام (٢) ٠

---

(١) راجع مقدمة حياة محمد للدكتور هيكل ص ٤ وما بعدها .

(٢) انظر أخبار زيد بن عمرو بن نفيل فى الأغانى ١٣٣/٣ ، وفى الاصابة ج ٥٦٩/١

ثم هل هناك مصدر تاريخى يدل على أن هؤلاء الموالى كانوا يقومون بأعمال تبشيريه ، وأنهم حقا علموا الناس أصول دياناتهم فى مكة أو فى ضواحيها ؟ .

وهل كانت قريش تسمح لهم بمثل هذه الدعوة وصد العرب عن أوثانها ؟ .

لقد رأينا قريشا تشن حملات تعذيب عنيفة على الذين دخلوا الاسلام من الموالى ، ولم يسلم من أذاها كبار المسلمين السابقين مما يدل على أنهم كانوا حريصين على آلهتهم ، ولا يسمحون أن تقوم دعوة ما ضد عبادتها .

والمسلمون الأولون من بطون قريش ومن ذوى المكانة بين قومهم ، أسلموا سرا ونالهم أذى كثير على اسلامهم .

أبو بكر ، وعثمان ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ... وغيرهم أسلموا سرا وأخفوا اسلامهم خوفا من قريش ، وأوذى أبو بكر حتى هم بالهجرة الى الحبشة ، وأوذى غيره من هؤلاء السابقين ، فهل كانت تسمح قريش للموالى المستضعفين أن يبشروا بالمسيحية أو غير المسيحية مما يحط من مكانة الأصنام ؟ .

ولم يرو التاريخ أن واحدا من هؤلاء الموالى، لاقى من قريش

تعذيبا أو طردا على نحو مالقى المسلمون ، ولو كان هناك دعـوة لدينهم ما سلموا من هذا العقاب .

وقد كان القرشيون أشد تمسكا بآلهتهم منذ فشل أبرهـة فى حمله لهدم الكعبة ، وعودته بقليـل من جيشه الذى فتـكت به الأوبئة والامراض .

ولا ريب أن ذلك زادهم استخفافـا بالمسيحية ، كما جعلهـم أشد بغضا لأتباعهـا .

ولم تكن ثقيف نصرانية ولكن تنصر منها أفراد ، ومنهم أمية ابن أبى الصلت الذى كان يذكر فى شعره قصص الأنبياء السابقين وكان قد علم من نصرانيته أن نبيا عربيا سيظهر فأمل أن يكـون ذلك الـنبى .

وظلت الطائف على وثنيتها ، رغم أمية وشعره (١) .

وحين ذهب النبى الى الطائـف يدعو أهلها الى الاسـلام ، اشترط عليه عبد ياليل أن يكون له الأمر من بعده اذا قبل دعوته .

وبعد أن فتح المسلمون الطائف ، كان عزيـزا على ثقيف أن تهدم صنمها (اللات) ، وطلبوا الابقاء عليه فترة ما ، ثم لمـا لم

---

(١) وكثـير من المستشرقين يرون أن هذا الشـعر الذى يصف الآخرة ويتحدث عن أخبار الماضين منحول دس على أمية .

يجبهم الرسـول صلى اللـه عليه وسلم كـرهوا أن يهدمـوه بأيديهم (١) ، كل هذا يرى مدى تأصل الوثنية فيهم •

واذا كان سكان يثرب قد أنسوا الى هذا الدين الجديد ،وهفت قلوبهم الى الاسلام تأثرا بما سمعوا من اليهـود (٢) فان سكان الطائف كانوا آخر من أسلم ، وقد قتلوا سيدهم عروة بن مسعود أن جهر بالصلاة فيهم ، مما يدل على أن المسيحية لم تنل شيئا من قلوبهم ، ولم تترك فيهم أى أثر يجعلهم يتخلون عن أوثانهم •

ولنذكر بعد هذا أن القرن السادس الهجـرى لم يكن عصر علم ولا شيوع ثقافة دينية • وكان المسيحيون العوام يجهلون منها أكثر مما يعلمون ، فلم يكن لدى موالى الحبشة أو شذاذ الفرس معلومات عن المسيحية تمد محمدا أو غير محمد بفكر دينى جديد

ولنا أن نضع سؤالا عاما أمام هؤلاء جميعا :

هل يؤمنون بمسيحيتهم ويهوديتهم قبلها ؟ أم ينكرون كلا من الديانتين كما ينكرون الأديان الأخرى ؟ •

أما من ينكرون الأديان جميعا ولا يؤمنون بوحى ما ، وهؤلاء

---

(١) هدم اللات أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بأمر رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ، لأن ثقيفا بعد ان يئست من ابقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهت ان تهدمها بيدها •

(٢) انظر حياة محمد ص ١٦٢

كثيرا جدا ــ فــلا جدال لنا معهم ، ومشــكلتهم ليست مشكــلة الاسلام وحــده ٠

وأما من يؤمنون بدين لهم ، ونبى تلقى وحى السماء من الله تعالى ، أو على الأقــل من المسيحيين الذين يؤمنون بمــا تجلى للرسول بولس ، فلماذا لا يؤمنون بما أوحى به الى نبى الاسلام، ولدى المسلمين حجة تؤيد ما آمنوا به ، وهى القرآن الــكريم ، وليس لأتباع بولس حجة مــا ٠

***

وبعد ، فليس هذا كل مالدى درمنجيم من مغالطات ، ولكن حسبنا معه هذا الموقف القصير ٠

صلة القرآن باليهودية والمسيحيـــة (١)

مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور رلهلهم رودلف من يهود الألمان المستشرقين • وموضوع الكتاب كما هو واضح من عنوانه بيـــان ما اقتبس القرآن من الديانتين السابقتين ، فهو أكثر تخصصا فى بحثه من الكتب التى تحدثت عن الاسلام عامة ، أو عن حياة النبى صلى اللـــه عليه وسلم ، وهو يتفق مع جيوم فى رسالته « أثـــر اليهودية فى الاسلام » •

ولكن ردولف بالغ فى شرحه وبسط حديثه، فلم يقف عند تأثر محمد بعقائد الديانتين ، بـــل حاول أن يـــرد معظم التشريعات القرآنية الى أصول يهودية أو مسيحيـــة •

والأساس الذى قام عليه البحث ، هو ما اعتقـــده المؤلف من أن القرآن من عمل محمد وتفكيره ، وذهب يبحث عن المصادر التى مدته بهذه المعلومات ، فأتعبه البحث كثيرا ، ولم ينته به الا الى افتراضات لم يجد لها دليلا •

ذكر أن اليهودية والمسيحية لم تكونا مجهولتين فى بلاد العرب

---

(١) ترجم الكتاب احد المسيحيين اللبنانيين ، ونشر الترجمة باسمه عصام الدين حفنى ناصف ، ونشرت طبعته الأولى دار الطليمة ببيروت سنة ١٩٧٤.

ثم ذهب يتقفى دخـول كل منهما الى جزيرة العرب ، فاذا بكل منهما تقف عند حدود معينة فى الجنوب والشمال ، ولم يجد لأى منهما طريقا يوصلها الى مكة ، حيث ولد محمد وشب ، واكتملت رجولته ، وأعلن رسالته ــ رسالة الاسلام ــ فمن أين اذا استقى هذه المعلومات ؟

يقول رودلف : « انا لمضطـرون أن نفترض أن اليهـودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما الى مكة التى يعنينا أمرها كثيرا لأنها موطن محمد ، وان لم يكن ثم ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد ، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم والا لاحتفظت لنا السير بأنباء أكثر اسهابا مما تناهى الينا»

وبهذا يقـرر بأسلوب علمى اقفار مـكة من أتباع هاتـين الديانتين ، لأن الأنباء التى وصلتنا ليس فيها ما يدل على أنه كان بها من يمكن أن يتعلم محمد منهم ما يكون قواعد هذا الدين .

ولجأ الى فكرة أخرى ، هى أن مكة كانت مستقرا للاتجار بين جنوب بلاد العرب وسوريا والعراق ،وأن لتجارها صلات تجارية فى الجنوب والشمال ، فلا ريب فى أنهم قد اطلعوا على معتقدات حرفائهم ، واذن فالتجار هم الذين قـد نقلوا الفـكر المسيحى واليهودى الى محمد .

وهل كلن هؤلاء التجار يهودا أو مسيحيين ؟

هنا يشعر الكاتب بضعف مستنده ، فيتساءل عمـا اذا كان العرب الجاهليون قبل محمد قد عرفوا أفكارا يهودية ومسيحية ؟
ويجيب بقوله : اننا لسوء الحظ نجدنا واقفين على أرض غير مستقرة ، اذ ليس هناك أدلة تمدنا بذلك •

ولكنه وجد فى شعر أمية بن أبى الصلت أحاديث عن طوفان نوح ، وغرق فرعون ، وهى معلومات نازحة من الجنوب ، غير أن كثيرا من شعر أمية منحول •

وقد تجاهل المؤلف أن أمية كان بالطائف ، وأنه ثقفى ، وأنه كان على صلة بنصارى الحيرة ، وشعر أمية مما يؤيد نبوة محمد ولا يعارضها ، فقد تعلم من نصرانيته أن نبيا عربيا سيظهر ، وأنه أظل زمانه ، وكان يتوقع أن يكون ذلك النبى ، فلما لم تنله النبوة غضب ، وقال عنه النبى : آمن شعره وكفر قلبه •

ويقول الكاتب فى الصفحة نفسها : « ومن المهم الآن أن نعرف مدى ثقافـة أولئك اليهـود والمسيحيين العرب • • • بيـد أننا لانجد معينا ننقع منه غلتنا » •

واذ حار دليل الرجل ، ولم يجد حجة ، رجـع الى الفرض الذى افترضه ، ليتخذه دليلا على نفسه •

ان القرآن به كثيرمن الديانتين اذتحدث عن الربانيين والاحبار وأن البيضاوى (المفسر الاسلامى) ذكر أنه كان بالمدينة «مدارس لليهود » وهى مدرسة كان اليهود يبصرون فيها بأمور « دينهم » ولكن لا ينبغى أن نعزو اليهم علما كثيرا ، فقد نقل محمـــد عنهم معلومات ضئيلة بها نقص ، ويتخللها ثغرات ، ولا يتحمل وحـــده تبعة ذلك •

وهؤلاء اليهود ، على شدة جلهم كانوا أرقى من الوثنيين ، ومنهم محمد ، وكانـــوا يشعرون أنهم أسمى من محمد ، لأنـــهم شعب الله المختار •

والذى ذكره البيضاوى وغيرممن المفسرين أنه كان لهم مجتمع يسمى المدراس ، يتدارسون فيه ، ولم يكونوا يعلمون فيه غيرهم، لأن الديانة اليهــودية ليست ديانة مبشرة ، وشعب اللـــه المختار لا يقبل أن يدخل فيه شعب آخر ، واذا كان الكاتب يصفهم بشدة الجهل فماذا عسى أن يستفيد منهم محمد أو غير محمد ؟ •

أماف صلة محمد بالمسيحيين ، فيذكر الـكاتب أن المسيحيين العرب لم يكونوا ينتمون الى الكنيسة الكاثوليكية ، ولا الى كنيسة الشرق ، بل كانوا شيعا غامضة العقيدة ، وقد أطلق عليهم القرآن اسم النصارى ، ليدل على صلتهم باليهود ، وربمـــا كان ذلك انه

لشيعة خاصة من المسيحيين ، وكان محمد على علم بانقسام المسيحيين أحزابا ، اذ جاء فى القرآن « فاختلف الأحزاب من بينهم » فى سورتين (١) ، وأشير الى فرق المسيحيين فى سورة أخرى ، كما جاء اسم الرهبان والقسيسين والكنائس والبيع ... الخ .

هذه حجج الكاتب اليهودى ، وهو يريد أن تكون الديانة اليهودية هى المسيطرة على المسيحية أيضا .

أما الشيع والأحزاب التى تحدث عنها القرآن ، سواء حملت على أنها الفرق اليهودية التى اختلفت فى شأن مريم ، أو الفرق المسيحية التى نشأت بعد المسيح ، فهى فى الواقع حجة لمحمد وليست حجة عليه .

وجاء فى القرآن الكريم « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون » (٢) .

كما جاء فيه « وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » (٣) .

---

(١) سورة مريم الآية ٣٧ وسورة الزخرف الآية ٦٥
(٢) سورة آل عمران الآية ٤٤
(٣) سورة القصص الآية ٤٤

وجاء فيــه « أو لم يــكن لهم آيـــة أن يعلمه علمـــاء بنى اسرائيـــل » (١) •

وتشير هذه الآيات وأمثالها الى أن هذا النبى الأمى ، قد علم من أنباء الغيب ما لم يعلمه معاصروه ، ومــا لم يكن شاهــده ، ويصدق علمه أن علماء بنى اسرائيل يعلمون صحته ، فهـــو اذن وحى أوحى اليه •

وحيث أن المؤلف قد عجز عن اثبات وجود كتابيين بمــكة ، وعن اثبات صلة محمـــد بأى منهم ، فكـــل افتراضاته بعـــد ذلك واهية ، والقرآن يقرر أن شرع الاســـــلام هو شرع الديانات السابقة جميعا •

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى • • • (٢) » •

«انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده» (٣)

ويسف الكاتب اسفافا أكثر حين يذكر أن كلمة المصـــباح فى الآية الكريمة «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٧
(٢) سورة الشورى الآية ٣٥
(٣) سورة النساء الآيات ١٦٣ــ١٦٦

مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى ٠ ٠ (١) ٠ تعنى مصباح الرهبان فى الصوامـــع ٠

وهذا يبين مدى التحامـــل الأعمى ، وهل وجود كلمة فى تعبير يعنى العلم بما جاءت به فى كـــل التعابير ؟

ويشعر المؤلف بضعف آخر ، مرده الى ماجـــاء فى القرآن من معلومات واسعة ، وتفاصيل دقيقة ، من التشريع والعقيـــدة ، وأخبـــار الكتابيين ، فيعرض سؤالا عما اذا كان كتابيو العرب اذ ذاك لديهم كتب يرجعون اليها ؟ ٠

وقد اضطرب فى الاجابة على هذا السؤال كما اضطرب فى عدد هذه النسخ ونوعها ، وهو يشعر بالتهافت فى كل ما عرض لـــه ٠

ليس هناك علم يقينى بأنـــه كان هناك يهود أو نصارى ، وما نقل عن الديانتين قد يكون بواسطة التجار ، ومن هم أولئك التجار ومامدى مانقلوا ، ومن الذين قابلهم محمدا منهم ؟ فاذا فرضنا أنه كان هناك كتابيون فمتى قابلوا محمـــدا ؟ وما مبلغ علمهم ، وما مقدار ثقافتهم ؟ كل ذلك مما لا يقين فيه ، وانما هـــو مجرد افتراض ، وهو لا يكفى أن يقوم عليه حكم علمى ٠

وفى الفصل الثانى ذهب الكاتب يورد الآيات القرآنية ، وما

---

(١) سورة النور الآيـــة ٣٥ ٠

يشابهها أو يقرب من معناها فى الكتاب المقدس ، وقد شق على نفسه فى ايراده نصوصا يبعد بعضها عن بعض ، ولم يكن ثم داع لكل ذلك والقرآن نفسه ينص على أنه لم يأت بدين جديد .

وأخذ الكاتب على القرآن أنه لا يذكر الأنبياء مرتبين ترتيبا زمنيا ، وأنه اذ أورد قصة البقرة ، ذكر أحوال اختيارها للذبح قبل ذكر قصة القتيل الذى ذبحت من أجله ، . . .

ولا يدل ذلك على شىء الا على جهل الكاتب باللغة العربية ، وكذلك الحال فى احتجاجه على وصف مريم أم المسيح بأنها أخت هرون ، فهو لم يفهم معانى الأخوة فى اللغة العربية .

وانتهى الكاتب الى رأى اقتنع به ، أو حاول أن يقنع به قارئه ، هو أن محمدا لم يطلع على مصدر مكتوب ، ولكنه تلقف معلوماته عن طريق السماع ، وكانت تنمو بمرور الزمن ، وخصوصا فى المدينة ، اذ قامت بينه وبين اليهود والمسيحيين مجادلات ، وقد تبين من تلك المجادلات أن معلوماته تغاير معلومات الكتاب المقدس ، فلم يسعه الا أن يرميهم بأنهم حرفوه وغيروا نصوصه . . « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (١)

---

(١) سورة البقرة الآية ٧٥

هذا ومن المعروف أن محمدا لم ينتقل الى المدينة الا بعد ثلاثة عشر عاما من اعلانه نبوته ، وحين انتقاله الى المدينة كانت العقيدة الاسلامية قد اتضحت كل الاتضاح ، وكان وهو فى مكة قد أنكر عبادة التثليث فى سورة الاخلاص ، اذ جاء فيها أن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

***

ووجد الكاتب فرصة فرح بها ، وهى أن قوم محمد اتهموه بأنه ينقل معلوماته من آخرين ، اذ جاء فى سورة الفرقان ، « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (١) .

وجاء فى سورة النحل : « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »(٢)

وهذه الفكرة ذكرها جيوم من قبل ، ولكن تكذيب محمد من قومه لايعنى كذبه . وقد كان الأنبياء والمصلحون فى كل مكان عرضة لمعاداة قومهم وبمدرجة الاتهام منهم ، لأن الناس فى كل زمان ومكان أعداء لما يجهلون . وحين قص محمد على قومه تفاصيل

---

(١) الآيتان ٤ ، ٥ (٢) الآية ١٠٣

الأنبياء السابقين ، قالوا انهـا أساطير الأولين ، وكـان النضر بن الحرث يقف بين الناس ويقص عليهم أقاصيص الفرس ويقـول انى أقول ما يقول محمد ، وليس كل اتهام يصدق مالم يقم عليـه دليل مقنع وقد رد القرآن مـا اتهموه بـه ردا منطقيا ، فقد كان النبى يجلس عند مبيعه شاب نصرانى يصنع الأسلحة بالمروة ، فقالوا انه هو الذى يعلمه ، وقال القرآن : « لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

واذا كان القرآن قد تحدى العرب الفصحاء أن يأتوا بمثله ، فكيف يتأتى لهذا الأجنبى أن يؤلف قرآنا ؟ .

معلمون وهميون :

يذكر المؤلف أن كتب السير أوردت بضعة أشخاص يعزى اليهم أنهم كانوا معلمى محمد ، ولكننا لانعرف الكثير من أمرهم ، ومن المعروفين ورقة بن نوفل ، وبحـيرا الراهب .

والمؤلف غير صادق فيما ذكر من أن هناك معلمين مذكورين فى كتب السير ، ولو كان صادقا لسمى هذه الكتب التى أشار اليها ، وليس هناك كتاب اسلامى فيه شىء من هذا .

أما ورقة فكان من الحنفاء ، وقد مات بعـد نبوة محمد بقليل جـدا ، وهو حين أخبره محمـد صلى الله عليه وسلم بأول وحى

تلقاه ، أخبره أنه الناموس الذى أنزله اللــه على موسى ، وعلى عيسى ، مما يدل على أن ورقة لم يكن يؤمن بأن عيسى ابن اللــه ، ولافيه جانب الهى، وتمنى لو تطول حياته حتى يؤازر محمدا حين يعلن رسالته ، ويخرجه قومــه من بلده ، ولكنه مات قبل أن يكلف محمــد انــذار عشيرته الأقربين ، أو بعبارة أخرى قبل أن يعلن دعوته ، والقرآن الذى أنزل عليه قبــل موت ورقة لم يكن به أى تشريع •

على أن رودلف يشعر بالكثير من التردد والتخــاذل فيما يورد من شأن محمد وورقة ،فيذكر أن ورقة لم يكن معروفا بالدقة ان كان يهوديا أو نصرانيا قبل أن يتحنف(١) ثم يذكر أن بعضهم عزا اليه أنه نسخ أجزاء من الكتاب المقــدس ، بل هناك من زعم أنه ترجم تلك الأجزاء •

ولم يبين رودلف هذا البعض، ولامصدر علمه به ، ولامصدر علم هذا البعض بما نسب الى ورقة ، ولا اللغات الأخرى التى كان يعرفها غير اللغة العربية •

والذى ورد عنه فى المصادر العربية ، أنه كان طوف بالآفاق

---

(١) الحنفاء أو الأحناف كانوا يعبدون الله على ملة ابراهيم ، وتد تركوا الوثنية كما تركوا اليهودية والمسيحيــة — وفى حديث « كيف كان بدء الوحى » أنه كان نصرانيا . وفى السيرة الحلبية جـ ١/١٣٣ أنه كان يهوديا ثم تنصر ثم تحنف •

لطلا بالدين ، وكره عبادة الأوثان ، وكل ما كان منـــه أنه يتوقع ظهور نبى وأنه بشر محمدا أنه هــو النبى المنتظر وأنه سيعادى ويحارب من قومه وتمنى لو عاش حتى يظهر محمد دعوته ليؤازره ويقف بجانبه ، وفى هذا الحديث أنه لم ينشب أن مات .

وهناك رواية أخرى تذكر أنه عاش حتى شهد بلالا يعذب(١)

وجميع الروايات التى جــاءت فى شأنه صريحة فى أنـــه مات والاسلام ما يزال فى بدايته ، ولم يأت بأى تشريع ، واذن فورقة بعيد كل البعد عن أن يكون له أدنى تأثير فى تفكير محمد .

وأما بحيرا ، فهو أحــد الرهبان المسيحيين ، وكان لهؤلاء صوامعهم على تخوم الصحراء ومنذ عهد يحيى عليه السلام كان لهؤلاء أماكن تتوالى عليها جماعاتهم ، وتنتقل كل جماعة من مكان لآخر لتحل محلهـــا جمـــاعة أخرى ، وكان منهــم أفــراد يقيمون على انفراد ، وكان بحيرا واحدا من هؤلاء ، وكان على الطريق المؤدى الى سوريا قريبا من بصرى تمر به قوافل العرب ذاهبة وآيبة ، وكانوا يجالسونه أحيانا ، وفى رحلة أبى طالب التى صحبه فيها محمد وهو صبى مر به ورأى محمدا (٢) وكانت سنه يؤمئذ تسعة أعوام ، وقيل كانت اثنتى عشرة سنة (٣) .

(١) انظر الاصابة جـ ٦٣٤/٣

(٢) انظر ابن هشام جـ ١ ص ١١٦ ت محى الدين جـ ١ صبيح .

(٣) السيرة الحلبية جـ ١١٣/١

وبحـــيرا لقب لهذا الراهب ، وأسمــــه جرجيس ، وقيــل سرجيس ، وكانت سكنتـــاه بالبلقـــان من أرض الشــام ، وقال ابن عســاكر كان يســكن قرية تســـمى الكفو ، وكــلا المكانين قريب من بصرى ومن الصــومعة التى يتعبد فيهـــا ، وكانت الصومعة هى الدست الذى يتبوؤه رؤســاء النصرانيــة ومن ينتهى اليـــه علمهم ، وكان بحيرا هــو ذلك الرجــل فى ذلك الوقت (١) ، وقد استضاف تجار العرب فى هذه المرة وقال لاينبغى أن يتخلف منكم أحد وكان محمد قد تخلف لصغره عن شهود مثل هذا الحفل وبقى عنــد رجال القوم ، فلما أنبأوا بحيرا بـــه طلب احضاره ، وقد بشره بالنبوة وأشفق عليه من يهود أن تناله بسوء

بهذا نرى أنها كانت رحلة عابرة ، ولقاء قصيرا بين عدد من القوم ، وكانت سن محمد لا تؤهله لحضور الحفلات مع الرجال، وقــد افتتح مونتوجومرى وات كتابه « محمد »بهذه القصــة واتخذها موضوع سخرية ، ورأى أنها قصة مصنوعة .

واذن فمن المقطوع به أن محمدا كان فى سن لا تؤهله لتلقى دراسةوالفترة التى لاقى فيها بحيرا : كانت قصيرة لا تعدو فترة تناول طعام ثم ان الرواية كلها موضع شك ، فكيف يجعل منهـــا مدرسة لتعليم ديانة مستوفاة كاملة ؟ ثم انظر كيف يجعلها بعض

(١) بحيرا بفتح الباء وكسر الحاء آخره الف مقصورة .

المستشرقين فرية لا أساس لها ، ويجعلها آخر هى حجر الأساس فى هذه الرسالة .

وينقل رودلف عن « شبرنجر » فرية لا وجود لها فى غـير رؤوسهما ، وهى أن بحيرا — وهو رائد محمـد والموحى اليه — انتقل معه الى مكة وبقى بها « يعمل من وراء ستـار متخذا من محمد وسيلة صالحة لدعوة الكفار الى نبذ عبادة الاوثان » .

وكل قارىء يلمح هذه الجرأة ويدرك الباعث عليها ، وهـو تلمس الكاتب سببا أى سبب ليهجم على الاسلام ويطعن محمدا صلى الله عليه وسلم فليس هناك مصدر ما يذكر أن بحيرا انتقل الى مكة ، ثم كيف ينتقل زعيم دينى انتهت اليه رياسة الأحبار وصار مرجعهم وقائد ديانتهم ؟ هل أسلم نصرانيته وتخلى عنها الى دين لم يكن قد ظهر ولم يظهر بعد حتى مضى أكثر من ثلاثين عاما ، والدين الاسلامى يقوم على التوحيد المطلق ، فكيف يقوم رئيس النصرانية بتلقين ما يهدم الديانة التى هو زعيم دعاتهـا ومعلميها ؟

ويشعر رودلف بضعفه ، وهو لكثرة مفترياته يعاوده الشعور بالضعف كثيرا — فيورد سؤالا لا بد أن يبرز فى الذهن ، وهـو لماذا لم يتنبأ بحيرا نفسه واكتفى بأن يكون من وراء ستـار ملقنا لمحمـد ؟

ويجيب على هـذا السؤال اجابـة لا ينبغى ان نفلتها نحن المسلمين .

يقول : ان محمدا كان له من حياته وأعماله ما يوحى بصدق رسالته .

واذن فمحمد كان مشهورا بالصدق والأمانة أكثر من رئيس الرهبان ، ومن الرجل الذى انتهى اليه علم النصرانية ، ومن كان مشهورا بكل هذا الصدق ــ كل الصدق ــ كيف يكذب ويدعى نبوة ليست له ووحيا لم ينزل عليه ، أيدع الـكذب على الناس ثـم يـكذب على اللـه ؟

وما حظ بحيرا من هذا العمل ؟ ان محمدا لم يحارب الوثنية فقط ، بل لقد حارب المسيحية ، وأنـكر من أول ما جهر برسالته أن يـكون للـه ولـد (١) وادعاء أن بحيرا رائده والموسـوس له يؤذن بأن بحيرا لم يـكن يؤمن بمسيحيته ، أو أنه قـرأ فى دراساته عن هذا النبى فصـدقه .

والمستشرق الألمانى اليهودى هرشفيلد .

كتب أيضا « حيـاة محمد » ولكنه رأى أن يغضي عن ذكـر بحيرا ، ويعتبر رودلف ذلك غلوا منه ، ولكن رودلف وقد ذكر كل

(١) تجد ذلك فى سورة الاخلاص المكية .

الذى ذكر ظل طوال وقته يحس بتهافت كـــلامه ، فيختتم فصله بهذه العبارات التى استسلم فيها كل الاستسلام ... « لم يكن أكثر من رجل التقى هو ومحمـــد مصادفة فى بصرى أو تحدث اليه فى الشئون الدينية حديثا لم يكن طويلا ، وان يكن ترك فى نفس محمد أثر عميقا ، وقـــد يكون هو الذى حفزه على العمل بيد أنه لا يمكن أن يكون هو الذى علمه تعليما حقيقيا ، ومن ثم فلنتخل عن محاولة ذكر معلم لمحمد » .

ومن أين اذن لمحمد بهذا العلم الواسع الغزير ؟

يعود صاحبنا فيقول انه كان يحظى فى مـــكة بفرص لسماع الأحاديث عن الديانتين ، واذن فقد انتهى الكاتب الى ما بدأ به ، وقد رأينا من قبل أن مـــكة كانت مقر الشرك والأصنام ولم تكن بها أية لمحات ثقافية ، وليس للكاتب أى مستند على ما ذكـــره من أنها كانت تعج بالمحاضرات الثقافية ، وأين ترى كانت هـــذه المحاضرات ومن هم الذين كانوا يلقونها ؟ لو صح ذلك أو ما هو قريب منه ، لوجد فى مكة مسيحيون أو يهود ، أو شاعت ديانات أخرى بجانب الوثنية ، هذا دليل ليس أقوى من سابقه ، وانما هى كلها تهم وافتراضات لا تصمد للنقاش العلمى ، ولا تنهض حجـــة على ما افترض الـــكاتب .

ما أخذ محمد من اليهودية والنصرانية :

يفترض الكاتب أن محمدا كان شديد الاعجاب ، بالديانتين الكبيرتين ، وأنهما كانتا معروفتين معرفة كافية فى بلاد العرب ، ولم يكن محمد يهتم بالوثنية ، ولهذا لم يذكر القرآن الوثنيــة العربية ، ولم يورد منها غير الاعتقاد بالجن ، ومرة واحدة ذكر اللاة والعزى ومناة عرضا •

ويبدو أن المؤلف يستغل جهل الذين يكتب اليهم بالقــرآن وبالاسلام ، فالقرآن وان لم يذكر أسماء الأصنام ، كان من أول نزوله شديد التركيز على وحدانية الله ، شديد الزرايــة بعبادة الأوثان ، مذكرا بالبعث والحياة الآخرة ، ولا يستلزم شىء من ذلك أن يذكر القرآن أسماء الأوثان • ويكفى أن يذكر النــاس بوجوب اخلاص العبادة للــه الخالق ، وترك عبادة ما لا ينفــع ولا يضر •

وفى أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « ان الى ربك الرجعى • • • فليدع ناديه • سندع الزبانية » وفى كل من سور القلم والمزمل والمدثر ، وهى السور التى تلت سورة العلق ذكر للحياة الآخرة ، وتهديد لمكذبى رسالة محمد ، ولم يكن هؤلاء الا وثنيين •

وفى سورة التكوير زراية بالغة على أعمال الوثنيين ، ووصف لأهوال القيامة ، وتأكيد لصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن مكذبوه يومئذ الا من الوثنيين ، وتصديق رسالته ابطال لوثنيتهم . فالقرآن من أول نزوله شديد الاهتمام بابطال الوثنية

ويذكر المؤلف بعد ذلك شيئا غريبا لا يكاد يفهم :

يقول ان محمدا أخذ من الوثنيين اسم اللــه ، وتصور ، أنه أسمى من الأصنام ، وأضفى عليه معنى جديدا بقوله انه لا شريك له — وقد كان فى السنوات الأولى من نشاطه قلما يستعمل هذا اللفظ ، ويستعمل بدلا منــه كلمة الرب خشية أن تثبت الــكلمة القديمــة فى نفس السامع معناها القديــم .

ولفظ الجلالة (الله) معروف فى الآرامية والعربية ، وأكثر الأقوال فيها أنها من كلمة « الالــه » ثم خففت نطقا ، وبقى لها معناها ، وأنها علم على ذات الله تعالى ، ومن الوثنيين من كانوا يعبدون الأصنام على أنها وسائل تقربهم الى اللــه ، أى أنهم يعرفون أن هناك الها أسمى من الآلهــة التى يعبدونهــا .

وبهذا يكون المؤلف أخطأ فى الشقين جميعا ، فاسم اللــــه معروف عند الوثنيين العرب وعند غيرهم ، ولا ينبغى أن يقال فيه ان محمدا أخذه منهم ، اذ هو ليس اسما خاصا ، ثم ان محمدا لم يجعل الله صنما أسمى بين الأصنام ، بل دعا الى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأوثان نهائيا بكل صورها .

ويقول المؤلف اكمالا لهذا الحديث ان محمدا طول العهـد المكى لم يذكر شيئا يمت الى الوثنية ، ولم يذكر التضحية الا مرة واحدة ، ولم يكن يستعمل كلمة الله الا قليلا ، وبدلا منها يستعمل كلمة الرب ، وانه رد فعل لمواجهته اليهود والنصارى فى المدينة عاد الى بعض المناسك الوثنية ، فأدخل فى الاسلام تقديس الكعبة والحج اليها •

والمؤلف بحكم يهوديته ، وتقيده بطقوسها ، يفهم من الضحية معنى التضحية ، وأنها كفارة للذنوب ، ولهـذا فهم أن ما جاء فى سورة الكوثر من قوله تعالى : « فصل لربك وانحر • • » أنها من التضحية ، ومما أخذ من اليهود •

هذا ، ونحر الحيوانات ضحية معروفة فى الأديان القديمـة وكان معروفا عند الكنعانيين قبل أن يروا اليهود ، أو على الأصح قبـل أن يفد ابراهيم الى تخوم فلسطين ، والاسلام يستعمـل ضحايا عيد الضحية للصدقة والبر بالفقراء ، وهو عمـل يتقرب به الى اللـه تعالى ، سواء من المذنبين ذوى الخطايا الكبيرة ومن الأطهار الأبرار على السواء •

وكان العرب يعرفون القرابين الحيوانية ويذبحونها لأسباب كثيرة ، ومشهور أن عبد المطلب جد رسول الله ، افتدى ابنـه عبد الله بمائة من الابل ، فقد أخطأ المؤلف فى عده النحر مأخوذا

من اليهودية ، وأخطأ المؤلف فيما ذكر من أن محمدا تحاشى اسم الله ، حتى لا يذكر بمعنى الكلمة القديمـة •

أخطأ من ناحية الواقع ، ففى سورة الزمر المكية يقول اللـه تعالى : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو اللـه الواحـد القهـار » (١) •

ففى آيتين قصيرتين ذكر اسم الله خمس مرات ، وفى سورة النجم المكية أيضا التى أشار اليها: « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٢) •

والقرآن يستعمل كلمة الرب وكلمة الله أو غيرهما من أسماء الله حسب مواقعها ، وأكثر ما تستعمل كلمة الـرب حين يقتضى المقام تذكير الانسان بنعم الله عليه يقول ربك ، أى الذى رباك وأحسن اليـك • وكثـيرا ما يأتى هذا عند ذكر الأوثان أو أى معبود غير الله ، اذ تشير الكلمة الى أن هؤلاء لا فضل لهم ، وأن الذى له وحده الفضل كل الفضل هو الأحق بالعبادة •

أما اتجاه المسلمين نحو الكعبة فى صلاتهم ، وحجهم اليها ، فهو معروف منذ كان محمد صلى الله عليه وسلم بمكة ، والكعبة

(١) الايتان ٣ ، ٤ (٢) الاية ٢٣

بيت محجوج من قديم ، وحين عقد النبى محمد صلى الله عليه وسلم على السيدة خديجة ، وقبل أن يوحى اليــه بخمس عشرة سنة ، خطب عمه أبو طالب فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنــا بلدا حــراما ، وبيتــا محجوجا ••• وكان محمد صلى الله عليه وسلم ، اتباعا لابراهيم عليه السلام ، يطوف بالكعبة قبل أن يوحى اليه ، وظــل يطوف بها بعد أن أوحى اليه •

فانظر كيف يستبيح الكاتب أن يجعل الحج اليها انما هو رد فعل لاتصال محمد باليهود ؟

أرأيت مغالطة كهذه المغالطة ؟

والمؤلف شديد التعصب ليهوديته ، فهو يكرر أن المسيحية ذات لون يهودى ، وأن المسيحيين كانوا يلتزمون بما جاء فى العهد القديم ، وهو يقصد بذلك أن اليهودية ذات تأثير على الديانتين، ولا أريد الجدال ازاء المسيحية ، فان المسيحية امتداد لشريعــة موسى ، وقد كانت رسالة المسيح اصلاحا لمــا أفسده اليهود من نصوص التوراة ، وهداية للخراف الضالة من بنى اسرائيل •

هــذا مثل من أمثلة المغالطات التى ينهجها مؤلف كبــير من اليهود ، لا يتورع أن يفترى وأن يغالط،ولسنا بحاجة الى ذكر كل مغالطاته ، وليس ما ذكرناه أقواها ، ولكنا نذكر هذه الفكرة أيضا ،

(البعث والجـــزاء)

يذكر المؤلف أن التوحيد ليس أهم ما جاء به محمد ،ولكن أهم ما جاء به هو وصف محاكمة الدار الآخرة ، اذ أفاض القــرآن المـــكى فيها افاضة واسعة ، وقد استقى معلوماته من اليهودية •

فما قيمة هذا الـــكلام وما منزلته من الحـــق ؟

يقوم الاسلام قبل كل شيء على صحة العقيدة ، والعقيـــدة التى دعا اليها الاسلام هى أن خالق الكون والمستحـــق للعبادة واحد لا شريك له « لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد » •

وهو سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير •

ومن السور التى وضحت ذلك سورة الاخلاص ، وهى من السور المكية التى نزلت فى وقت مبكر ، حيث لم يكن ثم احتكاك بين الاسلام والمسيحية أو اليهودية ، وانه لمن المنطق ومطابقـــة الأمور لطبائعها ، أن يقرر الاسلام هذه العقيدة أولا ، ثم يأتى بعد ذلك بالعبادات والتشريع ، فبغير هذه العقيدة تكون العبادات لمن لا يستحقها •

وتثبيتا لهذه العقيدة ، وتعليما للناس بما ستكون عليه عاقبة كل شخص ، تحدث القرآن عن الجنة والنار والحساب ، وهـــذا من متممات العقيدة •

ومن المعروف أن العهد القديم يخلو خلوا تاما من ذكر البعث والحساب ، والجنـــة والنار ، ولم يأت فيه غير ذكـــر الهاوية أو

شيول ٠ ٠ وهى هوة تبتلع أعـداء بنى اسرائيل ، والذى ذكـر الجنة والنار هو التلمود وقد ذكر المؤلف من قبل أن محمدا لـم يقرأ التلمود أو غيره من كتب الديانات ، وأن معلوماته وصلتـه عن طريق السمـاع من التجـار ، والتجار ليس لهم معلومـات عميقة ، ولا يلمون بتفاصيل واسعـة ٠

ويقول المؤلف : ان محمدا فى أول أمره كان يدعو الى البعث العام ، أى بعث الناس جميعا ، سيئهم ومحسنهم ، ولم يذكر ما تغير فى آخر أمره عن أوله ، ويرى أنه احتذى المسيحية فى هـذا العمـل ٠

وتوضيح هذه الفكرة أن أصل البعث عند اليهود ، هـو أن تأتى حياة سعيدة رافهة لأبناء بنى اسرائيل ، يملكون فيها العالم كله ، ويكون الآخرون أيا كانوا أتباعا لهم وخدما ، وهذه هـى أرض المعاد التى تفيض عسلا ولبنا ، وهذه هى الحياة الثانية ، ثم طرأ عليهـا بعض التعـديل ، اذ قرر بعض الأحبار أن التمتع بهذا النعيم لن يـكون الا للصالحين ، وليس للمفسدين حياة فى أرض المعـاد ٠

وكان فى هذه الفكرة دعوة للمفسدين أن يكفوا عن فسادهم ، وتعزيز لأرض المعاد بأنها ستكون أرض الصالحين وفى عهد متأخر قرر أحبار آخرون بعث الناس جميعا ٠

وتلمس القسس فى أقوال المسيح ما يمت بصلة الى هذا الرأى

أو ذاك ، والفكرة المسيحية تأتى عرضا ، من ذلك ما جاء فى كلام المسيح لشخص دعاه وعمل لـه عشاء : اذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجدع العرج العمى ، فيكون لك الطوبى اذ ليس لهم حتى يكافوك ، لأنك تكافأ فى قيامة الأبرار (١)٠

وليس فى هذا نص قاطع على أن القيامة للابرار وحدهم ، بل المعنى القريب الظاهر منها أنه يحشر مع الأبرار الذين أخلصوا العمل لله ٠

وفى انجيل يوحنا عبارة قريبة من هذا ، اذ يقول المسيح : الحق الحق أقول لكم : ان من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ، ولا يأتى الى دينونة ، بل قد انتقل من الموت الى الحياة ، الحق الحق أقول لكم انه تأتى ساعة وهى الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون ٠ ٠ ٠ ٠

لا تتعجبوا من هذا ، فانه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين عملوا السيئا تالى قيامة الدينونة (٢) ٠

ومن المعروف أن الحياة بعد الموت ، وحساب الناس على أعمالهم ، مما تقوم عليه الأديان جميعا ، وصفات الحساب والجنة والنار ، موجودة فى الأديان القديمة ، وهى فى الديانة المصرية

(١) انجيل لوقا اصحاح ١٤ آيات ١٢ — ١٤
(٢) اصحاح ٥/٢٥ — ٢٩

وقد جمعت أخيرا ق كتاب سمى (كتــاب الموتى) وهى كــذلك موجــودة فى الديانة البابلية ، وأكثر الباحثين على أن التلمــود البابلى استقى معلوماته منها ، وقوى هذا الافتراض خلو التوراة من ذكر هذه الحيــاة .

ومعروف فى تعاليم الاسلام أن هناك حيــاة فى القبر بعــد الموت ، وسؤالا للانسان عن دينه وربه ونبيه . . . الخ ثم يسكون بعد ذلك بعث عام ؛ يحشر فيه الناس جميعا ويلاقى كــل منهم حسابا ، والآية الكريمة : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل » (١) .

تشير الى حياة القبر ، لأن الموت مرة ثانية يــكون بعد حياة ثانية فى القبر .

وفى الحديث : « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفــر النار » .

وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دفن بعض الناس وحين هموا بالانصراف قال : استغفروا لأخيكم فانه يسأل الآن وكان ذلك معروفا للمسلمين .

وأوصى عمرو بن العاص ولديه أن يمكثا بجانب قبره بعــد مــوته .

وجاءت أحاديث تذكر أن الميت يسمع خفق أقدام المعزين حين

---

(١) سورة غافر الآية ١١ .

انصرافهم ولم يفض القرآن فى وصف حياة القبر لأنها حياة محدودة ، والمؤلف يرى أن القرآن خلا من ذكر أى شىء عن حياة البرزخ متابعة للمسيحية ، والمسيحية لم تذكر شيئا عن حياة البرزخ ، ولا عن الحياة الآخرة ، اعتمادا على ماهو مذكور فى اليهودية .

النعيم المعنوى :

أخذ رودلف على القرآن أنه ذكر النعيم المادى وحده وأهمل الجانب المعنوى ، وأضعف ما يقوله بعض المسلمين من أن النعيم الأبدى عند محمد هو فى اجتلاء طلعة الله ، اذ ليس فى القرآن سند لهذا الرأى وأما الآيات «وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة » [1] فهى تصف حال الناس خلال المحاكمة لا فى النعيم ، وعزا ذلك الى أن الذين تعهدوا محمدا وكانوا يعلمونه من اليهود والمسيحيين ، كانوا ذوى عقيدة غليظة وانحطاط .

ويرى المؤلف أن محمدا لم يذكر شيئا جديدا من نعيم الجنة سوى العذارى الحور ، أما كلمة عدن فهى ذات أصل يهودى ، وفردوس مسيحية وقد جعل القرآن الناس فى الجنة ذوى مراتب ، ويرجح أن هذه الفكرة ذات أصل مسيحى .

والمؤلف مخطىء فى كل ما ذكر .

فالقرآن قبل كل شىء لم يهمل النعيم المعنوى ، فقد تكرر فى

---

(١) سورة القيامة الآيات ٢٢ — ٢٥

وصف المنعمين فى الجنة قوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » (١) وهذا الرضا نعيم معنوى ولا ريب •

وفى سورة الأنعام « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٢) •

ويصف القرآن دخولهم الجنة والملائكة تحييهم « حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين • وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين »(٣) •

وفى سورة فاطر « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور • الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » (٤) •

وفى سورة آل عمران « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون • فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥) •

ففى كل هذه الآيات نجد صفات الرضا ، واطمئنان النفس

(١) سورة البينة آية ٨ (٢) آية ٨٣
(٣) سورة الزمر الآيتان ٧٣ ، ٧٤
(٤) الآيتان ٣٤ ، ٣٥
(٥) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠

والسرور البالغ، والقوم يكررون حمد الله وشكره على ما انتهوا اليـــه .

بل اننا نجد المسلمين فى الدنيا ينشدون هذا النعيم المعنوى .
فالفقراء المهاجرون مع رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم «أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا»(١) ورضوان اللـــه أسمى وأكبر من كل نعيم .

وانظر قوله تعالى « وعدا اللـــه المؤمنين والمؤمنات ، جنات تجـــرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبـــة فى جنات عدن — ورضوان من الله أكبر — ذلك هو الفوز العظيم » (٢) .

وتصف آيات أخرى حـــال المنعمين فى الجنة وما ينعمون بـــه من سمـــر طيب ، وأنهم يطلعـــون على من كانـــوا يغوونهم أو يسخرون منهم وهم يعذبون ، فتضع أمامنا صورا أخاذة لهـــذا النعيم المعنوى ، الذى لم يجده معظم المستشرقين فى القرآن .

فانظر الى قوله تعالى « . . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحـــكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الـــكفار ما كانـــوا يفعلـــون » (٣) .

فهم على أرائكهم المريحة ، ينظرون الى الذين سخروا منهم

(١) سورة الحشر آية ٨
(٢) سورة التوبة آية ٧٢
(٣) سورة المطففين الآيات ٣٤ — ٣٦

فى الدنيا ، وما يعانونه من عــذاب ، فيضحكون فرحا بما نالوا ، وسخرية مما كان هؤلاء يقولون لهم ورؤية هؤلاء المعذبين تزيدهم فرحا ، وتمسكن المسرة فى قلوبهم ، وليس فى الآيــة نعيم مادى الا كونهم على الأرائــك •

ومرة ثانية نجد الغبطة تفيض من حديثهم ، فهم قد آمنــوا بما وعدهم الله من نعيم ، فوجدوا وعــده حقا ، فيسألون الذين كذبوا بما وعدوا من عذاب « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا » (١) أى أننا وجدنا النعيم الذى وعدناه حقا ، فهل وجدتم نعيمنا وعذابكم حقا ؟ — وهو سؤال لا يخــلو من شماتة ، اذ هــؤلاء القوم أهانوهم من قبل وسخروا منهم ، وكانوا على أنفسهم مسرفين ، وليس المراد مجرد الاخبار بأنهم وجدوا وعد الله حقا ، فهو أمر ظاهر لأولئك وهؤلاء ، وإنما هــو اظهار الفرح والسرور بما وجدوا وما انتهوا اليه •

« واذا صرفت أبصارهم تلقــاء أصحــاب النار قالــوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمــين » (٢) •

وليس المراد مجرد الدعاء وهم ليسوا مع الظالمين،ولكن المراد هو اظهار الغبطة والفرح بالنجاة •

وما فى سورة التوبة أصرح من ذلك وهــو الآية « وعد اللــه المؤمنين والمؤمنات جنات تجــرى من تحتها الأنهار خالدين فيها

(١) سورة الأعراف الآية ٤٤
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » (١) .

فنعيمهم في الجنة عظيم ، ولكن رضوان الله تعالى أعظم من كل نعيم ، وهو نعيم معنوى . وهذا كثير جدا في القرآن .

ويصف القرآن بجانب هذا النعيم المعنوى : من الغبطة ورضا النفس والتمتع برضوان الله تعالى ما يعانيه الكفار من متاعب نفسية ، مثل قوله تعالى « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى »(٢) فنجد الخشوع والذلة حتى انهم لا يجرؤن على ادارة النظر فيما حولهم حياء وانكسارا ؛ فهم ينظرون من طرف خفى .

ومن ذلك قوله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب»(٣).

فهم فى هذا الموقف لا يجرؤن على رفع أصواتهم ويكتمون الحسرة فى نفوسهم ، أليس هذا عذابا معنويا ؟ .

فاذا وازنته بجانب ما يتمتع به الآخرون من غبطة ورضا واطمئنان أدركت أن النعيم المعنوى فى القرآن يساير النعيم المادى ، لو كان رودلف وأشياعه يفهمون آيات القرآن .

وشيء آخر يتكرر فى القرآن وله معنوياته ، وهو تلاؤم

(١) الآية ٧٢

(٢) سورة الشورى الآية ٤٥

(٣) سورة يونس الآية ٥٤ ، وسورة سبأ الآية ٣٣

هـؤلاء الكفار والقاء كل جماعة التهمة على الآخرين ، شأن المهزومين الذين تضعف نفوسهم عن احتمال مسئولية الهزيمة ، فيحاولون القاءها على غيرهم ، ويرجع الأتباع على سادتهم باللوم والتعنيف ، ويتبرأ السادة مما يؤاخذونهم به ، ويعود هؤلاء فيذكرونهم بما سبق من اغوائهم وصدهم عن الهدى ، وهو عذاب نفسى ، وآلام معنوية ولا ريب • فانظر الآية الكريمة :

« اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم »(١) •

والحسرات آلام معنوية ونفسية ، وهم يتمنون لو عادوا الى الحياة ليفعلوا غير ما فعلوا ، ويندمون على طاعتهم كبراءهم ، ولكن لات مندم • وانما هى آلام نفسية تلازمهم • واقرأ :

« ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٦٦ ، ١٦٧

وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانـــوا يعملـــون » (١) .

وينتهى بهم هـــذا الجدال الى الاستسلام حيث لا جـــدوى وراءه .

« واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفـــاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » (٢) .

ويعود المعذبون وقد يئسوا من نصرة ســـادتهم ، الى خزنة جهنم، فيتوسلون اليهم: ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. ويجيبهم هؤلاء : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات — قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضـــــلال — انه دعـــاء لا جدوى وراءه !

وفى سورة ابراهيـــم :

« وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنـــا لـــكم تبعـــا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ســـواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنـــا من محيـــص » (٣) .

(١) سورة سبأ الآيات ٣١ — ٣٣

(٢) سورة غافر الآيتان ٤٧ ، ٤٨

(٣) الآية ٢١.

فهـذه الاستغاثةأولا ، وهـذا الاستسلام ثانيا من الآلام النفسية ، وعرض الفريقين فى هذا العرض غاية فى تصوير الذلة والمهـانـة .

وتـكتمل الذلة بظهور الشيطان الذى أغواهم ، يتبرأ بدوره منهم ، ويدعهم يتجرعون الندامة وحدهم :

« وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحـق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » (١) .

وهناك مشهد آخر من الآلام النفسية ، وهو توبيخ الملائـكة لهؤلاء الوافدين على النار ، فانظر الى قوله تعالى :

« وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هـذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الـكافرين » (٢) .

فنجد ملامة وتقريعا ازاء استسلام وعجـز عن أى دفاع ، وهذا كثير فى القـرآن .

وفى موقف آخر نجد هؤلاء يتمنون العودة الى الدنيا .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٢

(٢) سورة الزمر الآية ٧١

« ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » (١)

كما نجدهم يتمنون أن يجد لهم شفيعا على شفاعته تنقذهم «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » (٢) .

وفى غير موقف يستشفعون بالحراس ، وفى آية أخرى :

« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى ، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » (٣) .

وفى آية أخرى « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » (٤) .

وانظروا الى هذا التصوير « ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون .تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » (٥) .

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٣

(٣) سورة غافر الآيتان ٤٩ ، ٥٠

(٤) سورة الزخرف الآيتان ٧٧ ، ٧٨

(٥) سورة المؤمنون الآيات ١٠٣ — ١٠٨

وتبدو فى هـذا الموقف ذلتهم أمـام الصالحين المنعمين ، إذ يقولون «أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللـه ، قالـوا ان الله حرمهما على الكافرين•الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هـذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون » (١) •

اذ تجد ذلـة وضراعة يقابلها تبكيت وتأنيب ، لقد مكنـكم كـذا وكـذا •

ونخلص من هذا الـكلام الى أن هناك نعيما معنويا وعذابـا معنويا ، وأن القرآن لم يقف كما زعم رودلف عند النعيم المادى على أن درمنجم يقرر هذا النعيم فيقـول :

ونحن نرى أن الجنة التى وصفها محمد ذات مـلاذ حسية ، وأن غفر الذنوب ، وسلام الرحمن على الأصفياء والنظر الى وجه الله أعظم سعادة (٢)وهذه كلها مناعم معنوية •

وقد يتجه بعد هـذا سؤال طبيعى ، ما هى أوصاف النعيم المعنوى فىأى من العهدين القديم أو الجديد ؟

لم يرد شيء غير كلمة الهاوية أو شيـول •

ويذكر رودلف أن فى عذاب جهنم تفصيلات لم يجد لها مرجعا ولم يعثر عليها فى غير القرآن ، كما يرى أن النبى محمدا انبرى

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٥٠ ، ٥١

(٢) ص ١١١ •

يدافع عن وحدانية الله ، ويوضح أن الله وحده هو الذى يحكم بين العباد ، وقد حمله ذلك على انـــكار جلوس المسيـــح عيسى بجانب أبيه ليحاسب الناس •

ونحن من قبلنا نذكر أن الاسلام هو دين التوحيد المطلـــق وان فـــكرة جلوس المسيح عن يمين أبيه يرفضها الاسلام كـــل الرفض لأنها تجعل لله شريكا ، وتجعل له ولدا ، وتسمه بالعجز عن حساب الناس وحده ، وتجعلـــه جسما له يمين وشمال ، وكل ذلكمما يأباه المنطق ، ورفض الاسلام كل هـــذه الصفات ممـــا يؤيد أن محمدا صلى اللـــه عليه وسلم لم يكن يقلد أحـــدا ولا يستقى معلوماته من أحـــد •

ومن الأشياء العجيبة والعجيبة جدا أن يجهد رودلف نفسه للبحث عن أصل كلمة فرقان ، التى سمى بهـــا القرآن فى بعض الآيات ، فيذكر أنها قريبة من كلمة فراك Feraq العبرية ، ومعناها قطعة أو فصل من كتاب ، ثم يذكر ثانيا انها مأخـــوذة من الآرامية Ferqama

ولكن هذه معناها هناك خلاص أو محاباة ، ويتوقع أن يكون هذا هو المعنى المقصود من الآية « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم • • » (١)

(١) سورة الأنفال الآية ٢٩ •

وأن محمدا قد أخذ الكلمة الأجنبية فأدخله عليها تعريفا عربيا ، وجعلها تحمل مرة معنى الخلاص ، وأخرى معنى التنزيـــل •

وكلامه غير جيد ، اذ الفرقان هنا يعنى النصر ، كمــا سمى يوم بدر يوم الفرقان ــ كما قد يعنى الشهرة وذيوع الذكر الذى يثبت الدعــوة •

الوصايـــا العشر :

ذكرت الوصايا العشر فى سفر الخروج فى الاصحاح العشرين من آية ٣ — ١١ ، كما وردت فى الاصحاح ٣٤ آيات ١٤ — ٢٦ ، ونجد شيئا منها فى سفر الخروج ص ٢٠ (٢٢ — ٣٣) واصحاح ٣٣ — ويسمى سفر هبريت (خـــروج) ص ٢٤ / ٧ وترتيبها فى الاصحاح العشرين من آيـــة ٣ :

أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر من أرض العبودية

١ — لا يـــكن لك آلهـــة أخرى أمامى •

٢ — لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صـــورة مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت •

٣ — لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأنى أنا الر بالهك اله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى •

٤ — وأصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى •

٥ — لا تنطق باسم الرب الهك باطلا ، لأن الـــرب لا يبرىء من نطق باسمه باطـــلا •

٦ — اذكـــر يوم السبت لتقدســـه •

٧ — ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأمـــا اليوم السابع فهو سبت للرب الهك ، لا تصنع عملا ما أنت وابنك وعبدك

وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك ؛ لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، واستراح فى اليوم السابع ، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه .

٨ ـ أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى تعطيك الرب الهك .

٩ ـ لا تقتل ـ لا تزن ـ لا تسرق ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور .

١٠ ـ لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا حماره ، ولا شيئا ما لقريبك .

وفى الاصحاح الرابع والثلاثين بدءا من الآية ١١ :

احفظ ما أنا موصيك اليوم : هأنا طارد من قدامك الآموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين ، واليبوثيين ، احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التى أنت آت اليها لئلا يصيروا فخا فى وسطك ، بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أصنامهم وتقطعون سواريهم .

١ ـ فانك لا تسجد لاله آخر، لأن الرب اسمه غيور ، اله غيور هو

احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض ، تيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم

وتأخذ من بناتهم لبنيك ، فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ، ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن •

٢ ـ لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة •

تحفظ عيد الفطير ، سبعة أيام تأكل فطيرا كما امرتك

فى وقت شهر أبيب لأنك فى شهر ابيب خرجت من مصر •

٣ ـ لى كل فاتح رحم ، وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بكرا من ثور وشاة • وأما بكر الحمار فتفديه بشاة ، وأن لن تفده تكسر عنقه ، كل بكر من بنيك تفديه ولا تظهروا أمامى فارغين •

٤ ـ ستة أيام تعمل ، وأما اليوم السابع فتستريح فيه ، فى الفلاحة وفى الحصاد تستريح ، وتصنع لنفسك عيد

الأسابيع أبكار حصاد الحنطة ، وعيد الجمع فى آخر السنة •

ثلاث مرات فى السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب اله اسرائيل فانى أطرد الأمم من قدامك وأوسع تخومك •

ولا يشترى أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب الهك ثلاث مرات فى السنة ، لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح •

أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك •

لا تطبخ جديا بلبن أمه •

وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الـكلمات لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل ٠

ويرى كثير من الباحثين وعلى رأسهم فلهاوزن ٠

أن هذه الوصايا أقدم من الصورة التى سبقت ، بل هى أقدم صورة للوصايا العشر جميعا ، ولكنهم رجحوا أن يكون لها ترتيب آخر ، ونظموها كما يلى :

١ — لا تسجد لاله أجنبى ٠

٢ — لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة ٠

٣ — لى كل بكر ٠

٤ — ستة أيام تعمل ٠

٥ — احفظ عيد الفطير ٠

٦ — اصنع لنفسك عيد الأسابيع ٠ ٠ ٠ وعيد الجمع ٠

٧ — لا تقدم دم ذبيحتى مع خمير ٠

٨ — لا تؤجل ذبيحة عيد الفصح ٠

٩ — أحسن أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب ٠

١٠ — لا تطبخ جديا بلبن أمه ٠

وقد راعى هذا الترتيب تقديم العبادة ثم أتبعها بالتعاليم الأخرى ٠

وحجة فلهوزن ومن تبعه فى أن هذه الصورة أقدم من غيرها أنها ترجع كلها الى العقيدة والدين ، بخلاف الصور الأخرى التى تحوى التقاليد والمظاهر الاجتماعية وشئون الزراعة ، فهذه انما نشأت بعد أن استقر الشعب الاسرائيلى وأصبح له زراعة وحياة اجتماعية واختلاط بالأمم الأخــرى .

وفى سفر التثنية ــ أى اعادة الشريعة ــ نجد وصايا وتعاليم كثــيرة ، ويتناثر منها بعض من الوصايا العشر من غير ســراعاة ترتيب ، ولكن فى الاصحاح الخامس وبــدءا من الآية السابعــة نجد هذه الوصايا :

١ ــ لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .

٢ ــ لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة مما فى السماء من فوق ..

٣ ــ لا تسجد لهن ولا تعبدهــن .

٤ ــ اصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى .

٥ ــ لا تنطق باسم الرب الهك باطــلا . . .

٦ ــ احفظ يــوم السبت .

٧ ــ ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك .

٨ ــ اكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب الهك لكى تطول أيامــك .

٩ ــ لاتقتل ولا تــزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبــك زورا ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا حقله ، ولا عبده ، ولا أمته ،

ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا كل ما لقريبك •

فانتقال هـذه التعاليم منهم الى الكنعانيين غير متوقع ، ويرى والتعاليم ، فهو يتحدث عن نظام القضاء والملك عند الاسرائيليين وعن الكهنة والنبوة ، وعن الشعوب السبعة التى سيهزمها موسى عند دخوله أرض مؤاب ، وأنه بعد هزيمتهم يقاطعهم ولا يتخذ له معهم عهدا ، لكنه فى السفر الرابع والثلاثين ذكر موت موسى وفى السفر أيضا اشارة لاستخلاف يوشع •

هكذا نجد الوصايا العشر ذكرت غـير مرة ، واختلف ترتيبها بين سفر وآخـر •

وقد لاحظ الباحثون فى مقابلات الأديان وتشابهها أن هناك تشابها قويا بين هـذه الوصايا والشرائـع التى جاءت فى سفر الخروج وسفر التثنيـة من جهة ، وبين شريعة حمورابى من جهة أخرى ، وان كانت قوانين حمورابى تدل على شيء من الحضارة لا يوجد مثله عند الشعب الاسرائيلى البـدوى الخشن الـذى لاثقافة لديه ولا مدنية ،ورجح هؤلاء أن الاسرائيليين نقلوا معظم هذه التشريعات بما فيها الوصايا العشر عن الكنعانيين ولنلاحظ أنه حتى هـذا الوقت لم يكن الآشوريون قد غزوا هذه البـلاد ، فانتقال هـذه التعاليم منهم الى الكنعانيين غير متوقع ، ويرى الباحثون أيضا أنه اذا كان قـد بقى شيء من توراة موسى عليـه السلام فقـد تكون هى هـذه الوصايا ، ولكن ترتيبها الذى كانت

عليه غير معروف لأنها وردت بترتيبات متباينة ، وهى قــد بقيت لنفاستها وحرص الشعب عليها .

ونحن من قبلنا نرى أن هذه الوصايا عامة فى جميع الأديان ، وما نظن ديانــة تخلو منها ، ولا نرى أننا بحاجة الى أن نفترض نقلها من ديانة الى ديانة ثانية ، حتى الديانا تالوثنية تحتوى على شىء منها ، وكثير منها مذكور فى الديانة المصرية ، وفى حكم بوذا والديانات الصينية ، فهى ليست مما يقال فيه انه سرق أو استعير من مصدر ما .

ونعود الى د ، ولهلم رودلف فنجده يقول :

« لقد عرف محمــد الوصايا العشر ، واكنــه لم يحافظ على عــددها ولا على ترتيبها ، كما أن فحوى كــل منها لم يبق دائما مطابقا للأصل . . . . فما من سبب للتغيير فى ترتيبها غير النقص الناتج من النقل الشفوى » .

ولسنا ندرى أى ترتيب يريــد المحافظة عليــه ، وقد نقلنا الوصايا العشر مختلفة الترتيب والعبارات والمعانى،ورأينا فلهوزن يرتبها ترتيبا يرجح أنه الأصح أو الذى ينبغى أن يكون ، وقــد سبقه جوتة الى مثل هذا العمل ، ثم نجد سفر التثنية بين اصحاح وآخر يذكر شيئا من هذه الوصايا غير مقرونة بأخواتها مما يجعل ملاحظة رودلف ليست بذات قيمة .

وهو يرى أن هذه الوصايا مذكورة فى أول سورة «المؤمنون» وفى الآية ٦٨ من سورة الفرقان وهى « والذين لا يدعون مع الله الـــها آخـــر ولا يقتلـــون النفس التى حرم اللـــه الا بالحـــق ولا يزنـــون • • » ثم يراها تذكر باسهاب فى ســـورة الاسراء وسورة الأنعام ، ولكن كلا منهما تترك شيئا من الوصايا ،فهـــى ليست مكتملة ، واضطرب الرجـــل وحار فى تعليـــل ذلك أو نسى أنه بنى أفكاره كلها على افتراض خاطىء ، فلم يكن محمد قارئا، ولا كان بمكة محاضرات دينية ، ولا كان التجار — فى أى وقت أو مكان — ذوى دراسات عميقة واطلاع يشمل تفاصيل أديانهم •

وقد بحث سير وليام موير من قبل صلة الاسلام بالمسيحية فى كتابه « حيـــاة محمد » وانتهى فيه الى أن تعاليم الاســـلام لا تمت بصلة ما الى المسيحية ، ونقل رودلف عبارته «اننا لا نجد أيا من المناسك أو العقائد الاسلاميـــة مشربا أو حتى ملونا الى حد ما بالآراء الخاصة بالمسيحية » وحاول توهينها ، فاستدل على ضعفها بأن فلهوزن قال ان جذور الاسلام متأصلة فى المسيحية • ويعود فيكرر استدلالا على رأيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قابل مسيحيين فى رحـــلاته ، كما قابل تجارا بمـــكة ، وهذا قـــد دحضناه من قبـــل •

نظرية « جريمــة » :

« جريمة » مستشرق ألمــانى أيضا ويــرى رأى رفاقه أن محمدا استفاد من كل من اليهودية والمسيحية ، وأخرج سنة ١٩٠٤ كتابا بعنوان « محمد » بثه آراءه عن تعلمه صلى الله عليه وسلم ورأى أن تأثيرات اليهودية فى محمد فى العهد المكى كانت ضئيلة أو باهتة ، وعزا فكرة التوحيد التى نادى بها محمد الى جنــوب الجزيرة ، حيث كانت هناك مسيحية وسط بين الديانتين الوثنيــة واليهودية ، لكن « جريمــة » لاحظ أن القرآن استعمــل أسلوب الشماليين ولغته لغة الشماليين ، وهى تختلف عن لغة الجنوبيين ولغة الجنوبيين أصبحت مجهولة لنا ، ولا نستطيع أن نحدد كلمة بعينها أنها من لغة الجنوب حتى نحصى جميع هذه الــكلمات فى القرآن الكريم ، وهو يظن أن كلمة سيناء جاءت بهذا الاسم مرة ومرة أخرى « سينين » ، وأن اسم الياس سمى أيضا « الياسين » وأن نهاية الكلمات بهذه الصورة سمة عربية جنوبية . ويكفى من أقوال جريمة أنه يعارض رودلف فى استفادة محمد من اليهود ، وتقريره أن أثر اليهودية باهت لا يــكاد يرى ــ كما أنه تردد أو عجز عن وجود دليل يثبت أخذه عن الجنوبيين .

أما رودلف فحمل نفسه مشقة كبيرة ، اذ أبى أن يكون شىء فى الاسلام مأخوذا من غير اليهودية والمسيحية ، حتى أن وصف

محمد رب العالمين بأنه رب الكعبة ، ناظر الى تسمية اليهود يهوه بأنه رب أورشليم •

وقرر « جريمة » أن فكرة بعث الناس وحسابهم ، ثم الانتهاء بهم اما الى الجنة أو النار وخلود بعض الناس فى النار • • الخ « كل ذلك لايمكن أن يكون مأخوذا من اليهودية ، اذ لا شىء فيها يصف هذه الحياة الأخروية ،كما أنه لا يمكن أن يكون القول بعودة المسيح الى الظهـور وحيا لهـذا الوصف الضافى التفصيلى عن الحيـاة الآخـرة » •

هذا وجريمة ليس من أنصار الاسـلام ولا المدافعين عنه ، ولكنه رأى بعد البحث هذا الاستنتاج ، واستبعد أخذ محمد عن أى من الفريقين ولـكن موقفه كموقف صاحبـه أو أصحابه من المستشرقين ،، أنكر رسالة محمد أولا ، ثم ذهب يتلمس مصادرها من جهات أخرى •

واختلاف القوم هكذا وتشتت وجهات نظرهم ، لا يجعـل الانسان يطمئن الى أى منهـا •

خاتمـــة :

هذه هى نظرية الفريقين بوجه عام الى الاسلام •

والقارىء الفاحص قد يتبين من هذا الاضطراب فساد هذه الآراء ، وربما مال به هذا الاضطراب الى الاعراض عنها جميعا ، وتلمس الحقيقة فى رسالة الاسلام ونبيـــه •

ولكن المشكلة أنه الى الآنلم يقدم المسلمون شيئا ذا بال عن دينهم ، ولم تقم لهم حركة تعرف بالاسلام وتدفع عن نبيه شيئا من هذه الاتهامات،وقد لاحظت أن أكثر مسلمى الانجليز ، أو ربما جميع المسلمين هناك ، ممن عاشوا فترة فى الشرق وبين المسلمين ومن النادر جدا أن تجد انجليزيا عرف الاسلام فمال اليه وتبناه مما قرأ عنه فى بلاده ، وهـــذا يدل على أن هناك استعدادا لقبول الاسلام وأن التعريف به غير كاف هناك ، كما يـــدل على تقصير المسلمين وتقاعسهم عن التعريف بدينهم •

وهـــذه مسئولية تلقـــى أول ما تلقى على مجمع البـــحوث الاسلامية فى مصر ، وعلى كل الذين ينتمون الى الأزهـــر ، ومن لهم مقدرة على القيام بهـــذا العمل النبيـــل •

وأسأل اللـــه تعالى أن يمدنا بعونه ، ويبعث فينا نشاطـــا جديدا وأمـــلا •

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا •

العقل المسلم

للكاتبة الانجليزية تساريس وادى

أنتقل بعد هذا الى كتاب استشراقى من نوع جديد — وعلى ما أطلت فى الحديث عنه كنت أود أن تكون وقفتى أطول ، لأنى أعتقد أن هذا الكتاب سيكون له أثر فى تحوير الفكر الغربى ، وتغيير نظرة الغربيين الى الاسلام ، وأنه بعرضه الأفكار التى عرضها من وجهة النظر الاسلامية ، ومن أفواه المسلمين ، يقدم للقارىء الأوربى شيئا غير ما ألف قراءته فى الكتب الأخرى ، وهو فى جملته دفاع عن الاسلام وتنقية له •

أما بالنسبة للقارىء الشرقى ، ففى الكتاب كثير من البحوث التى يجب أن يطلع عليها الشرقيون — وليس كل مسلم أو كل مثقف مسلم ملما بهـا — ذلك أن الكاتبة لجأت الى مشهورى الباحثين ، ونقلت عن كتب ذات دراسة عميقة ، وثقافة عالية ، لهذا كان عرض هذا الكتاب مفيدا للمسلمين وغير المسلمين ، وقد استطاعت أن تبسط الأفكار التى ألمت بها — وتقديمها لكل باب أو فكرة تمهيد جيد جذاب •

وأبدأ بالتعريف بالكاتبة والكتاب ، ثم أعرض بعضا من هذه الأبواب • ولو أننى عرضت لها جميعا ما كان ثمة ملل ولا اسآم ولكننى اعرضت عن بعض الأبواب لأنها لا تناسب كل قارىء ، بل تسمو على مستوى الكثيرين وحسبنا ما عرضنا •

أمـا أسماء الذين نقلت عنهم أو رجعت الى كتبهم — وهى كثيرة جدا — فقد رأيت ألا أتعرض لذكرها الا قليلا جدا — ذلك أنى لا أعرف أكثرهم ، ولأن الغرض الأساسى هو عرض الفكرة بقطع النظر عمن تنسب اليـه •

تسـاريس وادي :

ولدت هذه المؤلفة فى استراليا ، وشبت ونما صباها فى بيت المقدس ، وتعلمت تعليمها العالى فى أكسفـورد ، وهى مسيحية ما تزال على مسيحيتها •

انتقل والداها وهى فى سن الطفولة الى فلسطين ، وأقاما فى مدينة القدس • وفى هذه البيئة شهدت تساريس نشاطا للديانات السامية الثـلاث : اليهودية ، والمسيحية والاسـلام ، وقد نال الأساس الذى بنيت عليه هذه الديانات كثـيرا من تفكيرها حتى قبل أن تبدأ رحلتها الطويلة فى دراسة الاسلام •

وهى صاحبة كتاب قوافل بعلبـك ، ولها مقالات عديدة عـن وأول فتاة تتخصص فى دراسـة الجانب العربى من الحـروب الصليبيـة •

وهى صاحبة كتاب قوافل بعلبك ، ولها مقـالات عديدة عن الشرق الأوسط المعاصر •

وقد جالت جولات بعيدة فى البلاد الاسلامية ، من الملايو ، الى ايران ، الى نيجريا ، وعادت من رحلاتها هذه بعقيدة أنـه

مازال أمام الغرب المسيحى أشياء كثيرة يمـكن أن تستفيدها من الاسلام • ولكنها ما تزال على مسيحيتها • كما تؤمن بأن كثيرين سيجدون ثراء واسعا ، وفوائد فـكرية كبيرة ، من كل مجهـود يبذلونه فى تفهم الاسـلام •

وحضرت تساريس الى مصر قبل اخراجها هذا الكتاب ، كما حضرت بعده وقدمت نسخا منه لكبار رجال الأزهر ، منهم الشيخ الباقورى ، وشيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمـود • وزارت جامعة الأزهر ، وألقت بها محاضرة عن الاسلام ومشاعرها نحوه، كما زارت معهد الدراسات الاسلاميـة •

وكتابها هذا « العقل المسلم »مهدى الى فضيلة الامام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود ، وعند ما زارته فى مكتبه بعد اخراج الكتاب ، قدمت له نسخة منه كتبت عليها «الى الرجل الذي وقفت عليه هذا الـكتاب أهدى نسخة منه » •

وتساريس تفهم اللغة العربية سماعا وقراءة ، وتستطيع أن تقرأها ، ولكنها لا تسطيع أن تتكلمها فى سهولة وانطلاق • ولهذا هى تحاضر باللغة الانجليزية ، وتستعملها فى تخاطبها •

ويقع هذا الكتاب فى ستة أبواب كل باب منها ينقسم الى عدة فصول • وأعرض أولا منهج الكتاب ، ثم بعضا من هذه الأبواب لنتبين ما تحتويه ، وما استقر فى ذهن الكاتبة عن الاسلام — فهى

بجانب ما تنقل عن كــلام المسلمين تذكــر انطباعاتها عن بعض المبادىء والمشاهد الاسلامية ٠

منهج الـكتاب :

شرحت المؤلفة فى مقدمة كتابها ما دفعها الى تأليفه،وما رسم لها منهج البحث الذى اتبعته،والمنطق الذى أوردته منطق مستقيم كنا نود أن يأخذ بــه أو يلتفت اليه غيرها من المستشرقين ، ومما قالته فى هذا الصدد :

« انه من الأهمية بمكان أن نفهم العقائد التى لهــا مثل هذا التأثير البالغ على قطاع واسع من الشعوب وأن نوليها ماتستحقه من تقدير،ونحن فى المؤتمرات العامة لهيئة الامم نجد ربع المندوبين تقريبا ممن ينتمون الى عقائد اســلامية ٠

وقد دفعت الثروة البترولية الهائلة فى بعض المدن الاسلامية سائر الشعوب أن تولى هذه البــلاد اهتماما ، وهناك مشاكــل قليلة قد يمكن حلها والتغلب عليها من غير أن نتكلف جهدا كبــيرا للتعرف على الطريقة التى يفكر بها هؤلاء الأقوام ٠ غير أن ماضينا الطويل لا يسمح لنا أن نفعل ذلك بسهولة ،فهناك صفحات مخضبة بالدماء ، وجراح لاتزال تنزف فى كلا الجانبين ، ولكنه على الرغم من ذلك كله ، وفى المواجهات التى تكون ذات مرارة أشد ، نجــد أصواتا من جانب الاسلام ، وأيضا من جانب المسيحية ، تعطى تفسيرا أصح عن روح الديانتين جميعــا ٠

ولم تكن وجهة النظر المبسطة التى أبداها « تسانسون دى رولاند» فى أى وقت من الأوقات حدا للفكر الغربى • وعندما كان الحمـــاس الصليبى فى أقصى غليـــانه ، اعتمد بطرس المبجـــل Peter the Venerable ترجمة قرآنية الى اللغـــة اللاتينيـــة •

وعندما كانت أوروبا مهددة بالغزو العثمانى • أكـــد العالم السويسرى تيودور بيليا ندر ، أن الطباعة الحديثة ، وكانت فى أول ظهورها ـــ لا بد أن تضع أمام الجامعيين والسياسيين نسخا من القرآن الكريم ـــ وطبعته التى أخرجت فى سنة ١٥٤٣ لاتزال موجودة على رفوف المكتبات الـــكبيرة فى أوروبا دركا تعليقه أن بداية هذه الحروب الطويلة والأسر والأوبئة من السهل أن نلاحظ أنها كانت من جانبنا نحن المسيحيين ، أعنى المسيحيين بالاســـم لا بالعمل والحياة • وهى أعمال قد نراها بشعة تشمئز منها النفس حين تكون من غيرنا ، وكذلك أعمال الخبث الـــكبيرة انما كانت من جانب المسيحيين ، ولايبدو أبدا أن محمدا فى أى حال من الأحوال كان عـــدوا للمسيح •

ومن أول الأمر كانت اتجاهات الغرب نحو الاســـلام يلفها ظلام قاتم،وذكريات محرفة من آثار الصليبيين،وفى وقتنا الحاضر نحكم على الاسلام من خلال الأعمال الارهابية ، التى تقوم بها عصابات من العرب • وانه على سبيل المثال ليس من الانصاف أن

نقدر سمو المسيحية وفلسفتها بما يفعله البروتستانت المتطرفون فى ايرلاندا ، ولكن هكذا كان الحكم على الاسلام فى أكثر المواقف ولقد فشل الساسة الأوروبيون فى التفرقة بين الاشتراكية وبين الشيوعية ، لأنهم لم يقفوا على الفارق الأساسى بين المادية الجدلية والاسلام • وكان نقص الوضوح فى تصور الاسلام هو الذى قاد الى هذا الفهم السىء الخطير ، ثم هو الذى قاد الى زيادة الخطر اذ اعتبر الشرق الأوسط هو الركن الذى تنبعث منه الحرب العالمية • »

وفى هذه السطور أبدت المؤلفة بعض الجوانب التى تشوه الاسلام أمام الأوروبيين • والحق أن هناك ألوانا أخرى من النشاط الصهيونى أيضا ، ومن تعصب المسيحيين ، تضفى على الاسلام مزيدا من التهم ومزيدا من سوء الفهم ومن الظلام •

ولكى تتحاشى هذا الخطأ تقول المؤلفة: ان الحقائق الأساسية للاسلام يمكن أن نحصل عليها حية ومبسطة مما يأتى من أفواه المسلمين أنفسهم ، ولهذا دونت فى هذا الكتاب ما قاله لى المسلمون ومن كل أنحاء العالم، وليس هذا تحليلا مستقصيا للعقلية المسلمة، ولكنه مجموعة من المعلومات التى أضاءت هذا العقل أمامى ، ومقتبسات من كميات كبيرة من المحادثات التى أجريتها مع المسلمين، ومن الكتب التى أشاروا على بقراءتها •

واذن فهذا االكتاب « العقـل المسلم » ثمـرة صداقتى مع المسلمين •

وبعض العلماء أطلع على كتـاب « وادى » هذا فوصفه بأنه منهج جديد من تفكير المؤلفين المعاصرين • فالحصول على ثقافـة أجنبيـة،والعلم بدين مخالف لدين الكتاب ، يحتاج الى شىء من التواضع المتبادل والاحترام ، وهـذا يشمل الأذكياء والمثقفين ، وهذه الطريقة تجعـل القارىء أشد شغفا بما يقرأ ، لأنها تبث الثقة والاطمئنان الى ما يكتبه المؤلف •

وأحد الذين قرأوا هذا الكتاب كتب الى صاحبته أن دارسى الاسلام سيتحققون لأول وهلة أن هناك فرقا واسعا بين ما عليه المسلم المعاصر ، وبين مبادىء الاسلام ذاتها ، ولو أن المسلمين اليوم يتبعون حقائق الاسلام وتعاليمه ، لكانوا فى حال تختلف كل الاختلاف عما هم عليه ، ولعل كثيرا مما نراه ونأخـذه على المسلمين يرجع اليهم أنفسهم ، ولا يرجع الى الاسلام ـ وقد قال الشيخ محمد عبده من قبل ، وهو أعظم مسلم طور التفكير الاسلامى فى القرن التاسع عشر : ان الاسلام محجوب عن الغرب بستار كثيف من أعمال المسلمين •

وتقول المؤلفة أيضا : ان كثيرا من الذين قابلتـهم وأجريت معهم محادثات كانوا يدركون الفجوة الواسعة بين المثالية التى ينبغى أن تكون وبين الواقع المرير •

وتذكر المثل العربى « ما جاء من النفتين لا يجاوز الأذنين ، وما خرج من القلب يصل الى القلب » وأنها تنادى من أعماق قلبها أنه لا بد من سد هذه الفجوة •

وبوازع من هذه الفكرة ذهبت المؤلفة — تعرض أولا أسس الاسلام وما يمارسه المسلمون من عبادات ، فذكرت أولا سورة الفاتحة وما تراءى لها من مبادىء ذكرت فيها ، ثم تحدثت عن القرآن الكريم فى فصل مستقل ، ثم عن الحج ، وعن قواعد المجتمعات ولكنها تخلط بين القواعد الأساسية فى الاسلام وبين النظم التى يجرى عليها المسلمون ، فهى تتحدث عن الاشتراكية كما لو كانت تعليما دينيا وهذا يؤكد أن الناس حقا يحكمون على الاسلام بأعمال المسلمين ، فلا غرابة أن تدس هذه الكاتبة بين البحوث الاسلامية البحتة بابا عن الاشتراكية العربية •

وخصصت الجزء الثالث من الكتاب للحديث عن الصلات Bredges — وهو عنوان شائق ، تحدثت فيه عن الصلة بين الرجل والرجل ، وعن الصلة أو الانتقال من الحرب الى السلم ، والصلة بين جنس وجنس آخر ، وبين عقيدة وعقيدة • • •

وهكذا شمل هذا الجزء خمسة أبواب كل باب منها مقسم الى فصول ، وتعتمد جميعا على أدلة اسلامية ، والجزء الرابع أسمته « الطريق الى المعرفة » ويتكون من بابين اثنين : باب عن

الفلسفة والتعليم ، وباب عن التقدم واعادة تكوين المناهج الدراسية ، وفى هذا المجال تحدثت عن الأزهر وتطوره الحديث ، وعن وحدة الفكر التعليمى فى العالم الاسلامى ، وعن التعليم الاسلامى فى بريطانيا ، والبا بالخامس خصصته للحديث عن التصوف وسمته «رحلة القلب» The journey of the heart وخصصت الباب السادس والأخير للحديث عن مستقبل الاسلام والبلاد الاسلامية ثم ذيلت الكتاب بملحق من كلام الأستاذ عبد الخالق حسونة أمين جامعة الدول العربية السابق ٠

هذا هو المنهج أو الهيكل العظمى الذى يتكون منه كتاب « العقل المسلم » ٠

بهذا ترى أن الكتا ب ليس مجرد نقول من المسلمين ، ولكن للمؤلفة فيه شخصيتها وفهمها ، واختيار الموضوعات التى جعلتها موضع بحث ونقاش ٠

وقيمة الكتاب ـ قبل كل شىء ، وبعد كل شىء أنه يقدم للقارىء الأوروبى فكرة عن الاسلام أدنى الى الصحة ، ويرسم أمامه صورة مهما يكن من شأنها ، هى تعديل للصور التى رسمها من قبل مستشرقون آخرون ٠

ولم يتعرض الكتاب للمشاكل العقدية التى أثارها الآخرون ، مثل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتلمذته لليهود والمسيحيين ٠ أو كون القرآن ذا أصالة ، أو أنه صورة تلمودية ، أو مجموعة

من ركام الأديان ، ولا بأس عليها فى ذلك لأنها لا تتحدث أصلا عن الاسلام ، وانما تتحدث عن عقلية المسلم المعاصر .

وشىء آخر جاء فى هذا الكتاب مما كان يحتاج الى تعديل ، وهو جعل المؤلفة المسلمين قسمين : سنيين ، وشيعة ، والمؤلفة تجرى فى هذا على ماهو مألوف ، وجار به العرف فى انجلترا ، والواقع أن الشيعة فرق كثيرة مختلفة ، وبعضها لا يكاد يفترق عن السنيين فى شىء ، الا كما يفترق مذهب فقهى عن آخر ، كالحنفى والشافعى . وبعضها بعيد كل البعد عن منهج المسلمين العام ، وخصوصا من لهم منهج باطنى ، ومن يظنون أن التكليف مرفوع عنهم . وأنهم لا اثم عليهم فيما يرتكبون ، ولا يكلفون بأداء العبادات ، ولكن هذا مما لايعرفه الكثيرون ، لأن ذوى المذاهب الباطنية يحيطون حياتهم بالسرية والكتمان .

وأسلوب الكاتبة لا يخلو من مسحة أدبية ، خصوصا اذا كانت بعيدة عن شرح الحقائق العلمية ، وقد بدأته بالحديث عن مسجد اديلايد — باستراليا فقالت :

هناك لدى الشاطىء الجنوبى ،وحيث يواجه الشاطىء الاسترالى القطب الجنوبى ، وحيث تنساب رياح البحر الى داخل اليابس ، ثم لا تلبث أن تتمزق مهزومة على الفيافى المسفرعة تحت وهج الشمس فى داخل القارة . هناك يقف مسجد صغير . . . أنه يقف بين الشوارع الحديثة المأهولة فى هذه المدينة شيئا غريبا مثيرا للدهشة،ولكنه يمثل أقصى ماوصل اليه المد الاسلامى المندفع

من مكة منذ أربعة عشر قرنا • سواء فى ذلك امتـــداد الأفكار أو انطلاق البشر ــ هذا المد الذى انحسر حينا وانطلق حينا ، ولكنه أبدا لم يفقد قوته •

لقد كانت الصحراء القاحلة هى التى تمت هــؤلاء المهاجرين الى استراليا منـــذ قرن من الزمن ، وكانوا هم وابلهم هم الذين شقوا الطريق الى داخل هذا السهل سهل « نولاربور » •

وكانوا يعرفون على أنهم « غانيين » بـــدون تفرقة بينهم ، بقطع النظر عن الجهة الحقيقية التى وفدوا منها ، ولكن بعضـــا منهم على التحقيق وفد من افغانستان ، والقطار الذى يتجه نحو الشمال فى هذه الايام من أديلايد الى آلس واسبرنج وداوريـــن لا يزال يسمى قطار « الغان » • • •

والى حين من الزمن كان مسجد اديلايد مهجورا ، ولكنهـــا كانت مدة قصيرة • فقد شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية موجة جديدة من الاستراليين الجدد ، وفى خلال الأربعينيات كان أحد الوافدين من يوغوسلافيا اماما لهذا المسجد الذى بناه حداةالابل، وكان الذين يحضرون معه صلاة الجمعة مزيجا من مختلف الأقطار هناك ؛ طلاب من ماليزيا ، ومن أندونسيا ، ومن بعض الأقطـــار الأفريقية ، كما أن هناك مهاجرين من الأقطار العربية ومن تركيا ، وهناك عدد كبير من الأسر يفد ليستقر فى استراليا كل عام ، وهذه تعتبر مجموعات صغـــيرة بمقارنتها بالجمـــوع التى تحتشد فى

العواصم الأسترالية الأخرى كل يوم جمعة أو يوم أحد ، هذا مع تخطيط لمساجد ومراكز اسلامية كبيرة • ويوجد فى نيوساث ويلز New South Wales وحدها أكثر من ثلاثة آلاف مسلم ؛ وهذه الجموع الهائلة تعكس امتداد وسعة الطاقة التى يتماسك بها المسلمون ، على تفرق بلادهم وأجناسهم فى أى بلد يقيمون به ، وحيث ينشأ الأخاء والمودة بينهم أينما كانوا •

ولقد أتيح لى أن أتصل بالعالم الاسلامى مرتين من هذه الزاوية الجنوبية •

كانت المرة الأولى عقب الحرب العالمية الأولى ، عندما ذهب والدى بأسرته الاسترالية الى فلسطين ، رأيت البهجة والتوتر والأمل والتحامل خلال هذه الفترة يحزان بعمق فى عقلى الطفل

أما المرة الثانية فكانت بعد خمسين عاما من ذلك ، وقد استطعت حينئذ أن أتمهل بعض التمهل فى طريقى،ألقيت نظرة على أندونسيا وماليزيا ، وتذوقت مافى المعانى الاسلامية من عظمة ، تلك الأمثلة الفنية التى أنشأها البناءون المسلمون فى أجرا وأصفهان والقاهرة واستانبول •

كل مسلم يتجه الى مكة فى صلاته ، والكثيرون يحملون معهم « البوصلات » فى أسفارهم كى يحددوا بها اتجاههم بدقة •

وتستطيع أن ترسم خطا يصل ما بين مكة وأقصى مسجد فى الجنوب • انه سيخترق آلاف الأميال فى المحيط الهندى والعربى

حتى يصل الى مــكانه المحدد ، سوف يمر بسريــلانكا • ليصل بين الشرق والغرب الاسلاميين ، وشمال الخط يمتد نصف الهلال الاسلامى •

الأرض الاندونيسية الآهلة بسكانها الكثيرين ، شبه جزيرة ماليزيا ، مندانوا فى الفلبين ، الهند ، باكستان ، بانجلادش • • كل هؤلاء كى يتجهوا الى مــكة ، يجب أن يولوا وجوههم نحــو الغرب ولا يزال هنا أبعد نحو الشمال : أفغانستان ، وايــران وفيما وراء ذلك يعيش بضعة ملايــين من المسلمين على تخــوم روسيا والصين ، وبعض هؤلاء من سلالة الذين اعتنقوا الاسلام على يد التجار ، حينما كان هؤلاء يتجرون فى الحرير والبهارات ، ويحملون معهم دينهم فاستهووا بسلوكهم هؤلاء الناس كما يفعل بعض الناس الآن فى افريقيــة •

وهناك أقطار اسلامية عديدة ، تمتــد من جبال طوروس الى المحيط الهندى ، ومن الأطلنطى الى الخليج ، والى الجنوب توجد امتداد لا ينقطع بين الافريقتين •

وعدد الذين بعتنقون الاسلام فى ارتفاع مستمر •

فى سنــة ١٩٧٥ م نشرت مجلــة العــالم الاســلامى World Muslem Gazzetteer التى يصدرها المؤتمر الاسلامى فى كراتشى احصائية ن مسلمى العالم ، فــكان عددهم يربو على تسعمائة مليون ،مع أقلية اسلامية فىستوأربعين دولة اسلامية •

وبمقارنة هذا الرقم بالتعداد الذي نشر سنة ١٩٦٤ ، وكان ستائة وسبعة وأربعين مليونا ، نجد مدى التزايد بين المسلمين •

هذا مع نمو مستمر سريع فى أندونيسيا وبنجلادش والهند وباكستان ونيجريا ، وتركيا ومصر • • • ولا يمكن بالدقة تحديد عدد المسلمين فى روسيا والصين • • وما اليهما وقد يزيد عدد المسلمين هناك على ثلاثين مليونا •

ان دائرة العالم الاسلامى على سعة الجنس البشرى كله ، وأبناؤها ينغمسون بعمق فى المشاكل العامة التى تواجه الانسانية كلها •

والعقيدة التى يدينون بها بسيطة ، وتاريخها منذ ميلادها الى الآن غنى ويمثل مدنية عالية ، وينالـه التدهور والانحطاط فىأوقات كثيرة •

وأشارت الكاتبة الى المسلمين المهاجرين فى الولايات المتحدة والأنديز وانجلترا ثم قالت:ان المسلمين الآن يوجدون فى كل مكان به سكان يشربون •

ثم أشارت الى نحو ستين مليونا من المسلمين فى الهند يمثلون قطاعا متكاملا ، وهم آثروا البقاء بها بعد تقسيم الهند واستقلال باكستان سنة ١٩٤٧ ، وكان فى بنجلادش اذ ذاك نحو خمسة وسبعين مليونا من المسلمين ــ ولكن حكومتهم ــ سواء قبل انفصال بنجلادش أو بعده تعيش على قانون وضعى وقواعد

ديمقراطية ، ولكن الاسم الرسمى فى البلاد العربية ـــ فيما عدا لبنان ـــ كما هو فى باكستان وايران هو الدين الاسـلامى .

انه من الأهمية بمكان أن نفهم القيم والعقائد التى يمثلها مثل هذا القطاع الكبير ذى المكانة والنفوذ من بنى الانسان .

وان الاساس العقائدى للاسلام ، يأتى حيا وفى غاية السهولة عندما يأتى من أفواه المسلمين أنفسهم ـــ ولهذا دونت فى هـذا الكتاب ما قيل لى من المسلمين فى أنحاء العالم كله . وليس هـذا تحليلا شاملا مستقصيا للعقل المسلم ، ولكنه مجموعة من المواد التى استضاء بها عقلى ، وهـو مستخلص من عشرات المقابلات والمناقشات مع المسلمين ، ومن الكتب التى أشاروا بالرجوع اليها وهو فى جملته ثمرة لصداقتى معهم .

هذا بعض ما جاء فى مقدمة الكتاب .

والذى جعلنى أعنى به وأنقل عنه ، أنه حوى كثيرا من المسائل الحيوية الاسلامية ، وتعرض لكثير من الثغرات التى يحاول المستشرقون أن ينفذوا منها الى الهجوم على الاسلام .

وفى هذا الصدد كانت اجابات المسئولين قوية وواضحة ، وبهذا احتوى الكتاب أنواعا من الدفاع عن الاسلام ، وليس فى استطاعة القارىء العربى أن يلم أو يطلع على كل هذه الكتب والصحف والنشرات التى رجعت اليها المؤلفة ، فضلا عن الشخصيات التى رجعت اليها .

الطــريق

هذا الجزء يقع فى ثلاثــة أبواب هى : الصراط المستقيم — الهداية أى القرآن الكريم ، ثم طريق الحج ،وكل باب يشتمل على عدة فصول قصيرة •

وتقول المؤلفة : ان ادراك الاسلام للحياة يعبر عنه غالبـا بكلمة الطريــق ، طريق له بداية ونهاية ، فالشخص الفــرد على الطريق منذ ميلاده الى موته ، والجنس البشرى على طريق يبدأ بوجوده وينتهى به الى يوم الفصل ، وملايين من المسلمين فى كل وقت يديرون وجوههم نحو الكعبة ليؤدوا الصلاة قائلين « اهدنا الصراط المستقيم » وسورة الفاتحة — التى بها هذه الجملة تقرأ فى كل ركعة من الصلوات اليومية الخمس،والأطفال يحفظون هذه السورة ،كما أن رجال السياسة وذوى الأهمية يقرأونها ، ولقــد سئــل مرة أحد رؤساء الــوزارة السابقين عن سر نجاحــه فى مفاوضاته فأخذ يقرأ الفاتحة آيــة آيــة •

ويقول أحــد القضاة : اذا أردت أن تفهم الاســلام فأين تذهب ؟ ان أحد الأساتذة العلماء يقول : اننا يجب أن نذهب الى القاموس أولا ثم الى التعليم ، ثم بعد ذلك نذهب الى المسجد •

وحقا انه لا بد من الذهاب الى هذه الأماكن،ولكن هذا الذهاب بانفراد سيكون ناقصا ، لأن الاسلام ليس محصورا فى المسجــد انه طريق السلوك والبداية فى أعمال الحياة اليومية ، انه لابد أن

نراقب أعمال شخص مسلم قد فهم الاسلام من قبل ويطبق مبادئه،وبغير هذه المراقبة فان الذهاب الى المسجد أو الى نصوص الكتاب لن يعطينا الا فهما ناقصا .

وفى حديث المؤلفة عن الصلاة تقول :

ان المسلم فى صلواته يتجه بوجهه نحو مكة ، وحيثما أظله وقت الصلاة فى أى مكان يولى وجهه شطر الكعبة ، وهذا الاتجاه من جميع المسلمين انما هو رمز الوحدة بين ملايين المسلمين الذين يؤدون الصلاة فى مختلف أنحاء الأرض .

والصلاة تذكر الشخص بالله وتساعده على تلقى هدايته ، وأوقات الصلاة الخمسة فى كل يوم هى أحسن فرصة تستريح فيها النفس من ماديات الحياة .

والأسس الأخلاقية فى الاسلام انما هى مستويات يتبعها السلوك الانسانى لخير الأفراد والجماعات ، انها ليست مجرد تعاليم جافة يقف الانسان جامدا عليها على الرغم من تغير ظروف الحياة ، ولكنها تعمل على تكوين الضمير أو جانب الخير .

انه صوت فى باطننا يذكرنا دائما أن الله معنا .

والايمان بالله ينمى فينا دائما هذا النداء الباطنى الذى يجعلنا نتذكر فى كل موقف وجود الله معنا ، ولذا نسأله الهداية .

ويقول أحد رجال القانون المسلمين :

ان المشاكل التى يواجهها العالم — وخاصة فى العالم الاسلامى ، انما هى نتيجة انقيادنا الى ارادتنا ، بينما يجب أن ننقاد الى وصية الله ، ولو أننا تساءلنا ما الذى قاله الله تعالى لحل هذه الازمات ، لوجب أن نرجع الى القرآن الكريم : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) ونحن نكرر كل يوم فى صلاتنا : « اهدنا الصراط المستقيم » . ولا بد أن نفتح آذاننا وقلوبنا الى هداية الله التى نسأله اياها .

ان الانسان أشرف المخلوقات وأسماها ، وقد منحنا الله تعالى حرية التفكير فيما هو حق وما هو باطل ، ولكننا نقول : كل شىء بحكم الله . وهذا يتضمن أن الله يريد بنا الشر — وهذا خطأ ، ان الله وهبنا العقل والقدرة على التفكير ، ونحن نسأله أن يهدينا الى الحق والى الطريق المستقيم ، ولكنه لا يمسك بأذن كل واحد منا ليقوده الى الصراط المستقيم ، بل علينا أن نفتح آذاننا لتلك الهداية التى تتضمنها سورة الفاتحة ونحن نقرؤها فى كل صلاة .

وأنه جميل وحسن أن تجلى الكاتبة هذه الجوانب أمام القارىء غير المسلم ليطلع على ما يفهمه المسلمون من دينهم .

وحديث الكاتبة عن العبادات فى الاسلام منوع مختلف

(١) سورة الرعد — الآية ١١

الجوانب ، ولكنها نمسها بايجاز لأنها تجنح دائمـا الى قص ما شاهدته أو سمعته ممن تحدثت اليهم .

وهى فى حديثها عن الصوم تحدثت عن مظاهر منه فى البلاد المختلفة ، ثم عما شاهدته من آثاره فى نفوس بعض الناس ، وعما يتركه فى سلوكهم وصلات بعضهم ببعض .

وفى حديثها عن الحج تتحدث عن عدد الحجاج الوافدين على مكة ، وما تبذله الحكومة السعودية من عناية بهم ، وعن الوسائل التى تتخذ للوقاية من الأمراض فى هذا المزدحم من شتى الأجناس ثم تتحدث عن ابراهيم عليه السلام ، وعن الذبيح من ابنيه . وتذكر فىمغزى الحج نقلا عنالمسلمين أنه تضحية شاملة،تضحية براحة الشخص بنفسه وبلذة الحياة ومتعها، وبالمال ، وبفراق الأهل والاحبة ، وحتى بالملابس واستمتاع الشخص بحسن مظهره ، نسيان للتباهى بالأنساب ، وأصالة القومية ، وتضحية أيضابالاعمال والمكانة الاجتماعية . . . وهذه التضحيات كلها تتضاءل أمام التضحية الكبرى التى قام بها ابراهيم عليه السلام حين هم بذبح ابنه .

وفى موضع آخر تتحدث الكاتبة عن انطباعاتها ، ولبس نقلا عن أحد المسلمين فتصف كثرة الافواج الوافدة بالبر والبحر والجو ، كلهم ينصبون فى طريق واحد ، ويجتمعون فى مكان واحد وهم يختلفون فى الازياء ، والاجناس والالوان واللهجات ،

والمكانة الاجتماعية ، والغنى والفقــر . . . الخ ، ثم يلبسون ملابس الاحــرام فاذا هم جميعا ســواء ، فى كل شىء ، الملــك والسوقة ، والغنى الواسع الثراء والفقــير المدقع الفقــر ، ومن ينحدر من سلالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم منذ يوم واحد ، كلهم يقفون عبيدا خاشعين للخالق الاعلى ، واللــه الذى لا ينظر الى مظاهــر الناس وانما ينظر الى قلوبهم ، يطلع على ما يــكنه كل ضمير منهم ، وهاهم أولاء فى هذه المواقف قــد تجردوا من كل مظهر يميز بين شخص وآخر ، أو يدل على مكانة تميز الشخص أو تضعه ، انها مواقف اخلاص ومساواة .

أليست هذه هى الديمقراطية الحقــة ؟

أليس هــذا التجرد وهــذا الموقف جديرا أن يــكسر غرور المغرورين ، ويحط من كبرياء المتعالين ، ويجعل الناس يشعرون أن الدنيا حطام زائل ومظهر لا بقاء له ؟

أليس هذا أيضا مما يرفع نفسية الضعيف الواهن ، والفقير العافى ، والعاقر الذى لا ولد له ، ومن هو محروم من أى متعــة فى هذه الحياة ؟ انه بدوره يشعر أن ما يتمتع به الآخــرون من الأغراض الزائلة التى لا ينبغى أن يفرح أحد بها أو يحزن على فــواتها .

ان ملكوت الله مفتوح أمام كل شخص ، والنعمة التى تستحق أن يسرع الناس اليهــا ويتنافسوا فى الحصول عليها هى نفــاء

الضمير ، وصفاء النفس ، والراحة من حمل الضغائن وحب الظهور •

ها هم أولاء جميعا قد تجردوا من كل مظهر ، وبرزوا أمام الله • ورب فقير مقل أفضل عند الله من غنى مكثر •

هذا ما يعنيه المسلمون اذ يقولون ان الحج يذكرهم بيوم المعاد •

والحج أيضا يذكر المسلمين ببداية الاسلام وانتشاره ، لقد كانت الكعبة وما حولها تغص بأصنام وتماثيل جامدة لا تضر ولا تنفع ، وكان الناس يحجون اليها ؛ ويتوسلون اليها وبها ، والآن ذهبت كلها والناس ينادون الله وحده مخلصين له الدين ، « لبيك لا شريك لك لبيك » •

انه يذكرهم بجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم ونبل مقصده وعظمته ، وما أفادت الانسانية من أعماله وتعاليمه وسيرته •

وتتحدث المؤلفة بعد ذلك عن الدوافع الى الحج ، فتنتقل حديثا عن أحد الشيعة وعن أحد الأساتذة السنيين ، ثم تتحدث عن مبادىء الحج ، وأيضا عن مشقاته ونفقاته ، وتختم الحديث بعرض خطبة الوداع ، وتصف حجة الوداع بأنها من الأحداث الكبرى ، وأنها كانت مسموعة بآلاف من المسلمين ، ثم لخصت مبادىء الخطبة ومحتوياتها ولكنها لم تعلق عليها بشيء •

وتختتم الباب بحديث عن الأماكن المقدسة الثلاثة : مكة والمدينة ثم مدينة القدس ، وقد ذكرت أنها مقدسة فى الأديان السامية الثلاثة الكبرى • وقد شهدت بنفسها موسم حج للمسلمين ــ بعد حجهم الكعبة ــ الى المسجد الأقصى ، تصادف مجيئه مع عيد استر Easter ــ وكان المسلمون يزورون المسجد والأماكن المقدسة لدى المسيحيين • كان طريق المدينة العتيقة مزدحما بالناس وقد أضيئت جوانب المدينة وخمس منها تقريبا يشغله الحرم وأفنيته •

وتحدثت عن استيلاء المسلمين على المدينة فى عهد الخليفة الثانى عمر ، وابائه أن يصلى فى كنيسة القيامة ــ ثم تحدثت عن قبة الصخرة وأنها عمل هندسى عظيم يعتبر أول عمل من نوعه فى الاسلام،وكان ذلك على عهد الخليفة التاسع عبد الملك بن مروان•

وتذكر فى هذا الصدد شيئا عجيبا • أن الصخرة تتصل بابراهيم ، وبعده بقرون اشترى المكان داود ، وفيه بنى سليمان الهيكل ، وفيه مشى المسيح وعلم أنه لا يوجد مكان يمكن أن يكون بؤرة اتجاه كهذا المكان •

ولقد كان النبى محمد يأمل أن يكون هناك تعاون بين الأديان الثلاثة الموحدة ، وقد خاب هذا الأمل ، ولكن احترامه للأديان الأخرى والذين يؤمنون بالله سبحانه ويطيعونه لا تزال له جذوره عميقة فى نفوس أصحابه •

وهذا جميل ، ولكن حكمها أن داود بنى هيكله فى هذا المكان مما لا دليل لها عليه ، وهى فكرة مستحكمة فى أذهان اليهود ومن أجلها يريدون هدم المسجد الأقصى ٠ وقدفندت هذه الفكرة وبينت الأساس الذى بنيت عليه فى غير هذا الـكتاب ٠

وفى اللمحة التاريخيـة التى أوردتها عن المسجـد الأقصى ، ذكرت أن سدانة المسجد كانت موكولة الى جماعة من أسر معينة، يرجع حقها فى الاختصاص بهـذا العمل الى عهد صـلاح الدين الأيوبى ، حين استرد بيت المقدس من أيدى الصليبيين فى سنـة ١١٨٩ م ٠ وهم أسر الخطيب ، والحسينى ، والنشاشيبى ٠ وهم يقيمـون فى منازل تطـل على حرم المسجد حتى وقت زيارتهـا له سنة ١٩٦٦ م ٠ وقد مرت القرون تلو القرون وهم فى خدمته ، وبعض الأسر هناك ترجع اقامتهم الى زمن أبعد من ذلك ٠ فأسرة خالد التى يرجع تاريخها الى خالد بن الوليد ، استقرت فى هـذه المدينة منذ سنة ٦٣٨ م ، كما وفدت أسرة الشهابى من لبنان الى هذه المدينة منذ ثلاثة قرون ، وهؤلاء كانوا أمناء على عباءة النبى صلى اللـه عليه وسلم وقلم له ٠ وهى من الآثار الثمينـة التى يطلع الناس عليها فى مناسبة ليلة الاسراء والمعراج ٠

وازاء ما ذكرت الـكاتبة من تسامح الاسـلام ، وتسامح الحكام المسلمين ورفقهم بالـكنائس ، وحسن معاملتهم للذميين ، تذكر ما يفعل اليهود بالمسجد الأقصى ، وكيف أحرق المنبر الأثرى الثمين فى المسجد الأقصى ، وكان هذا المنبر قطعة فنية من نـوع

خاص من الخشب طعم بالأصداف ، ويقال ان صنعه استغرق عدة أعوام ، وكان ينبغى أن يحتفظ به لما له من قيمة أثرية ، ولا يزال بالاسكندرية متحف الرومان يحوى آثارا رومانية ومسيحية ولم يمسسه المسلمون بسوء •

والباب الرابع من الأبواب انهامة فى هذا الكتاب ، لأن الكاتبة تعرضت فيه الى بحوث ذات أثر فى حياتنا الحاضرة ، وهى لم تدل فيها برأيها الخاص ، ولكنها اعتمدت كعادتها على نقول عن المسلمين ، وكما قلت من قبل ان قيمة الكتاب هى أن ينقل الى القارىء الأوروبى أو غير العربى صورة أدنى الى الصحة عن الاسلام • أو ينقل جانبا من أفكار المسلمين عن الدين الذى اتبعوه •

وقد تحدثت المؤلفة عن حياة النبى صلى الله عليه وسلم وما تعنى بالنسبة لنا فى الوقت الحاضر ، كما تحدثت عن حياة الفرد والمجتمع والحقوق والواجبات وعن حياة الأقليات ، وحق الملكية ، والملكية الخاصة ، وعن واجبات الدولة ومسئولياتها

والحديث عن هذه الأبواب كلها يطول ، ولكننا نقتطف بعض عبارات منها :

ففى الحديث عن حياة النبى وما تعنيه بالنسبة للمسلمين : قدمت للحديث بكلمات قليلة جاء فيها أن ذكرى ميلاد النبى فى كل عام تتيح فرصة لشيوع المسرة بين المسلمين ، ولاقامة حفلات

أسرية ، كما تتيح فرصة التحـــدث عن أعماله وســـيرته ولياقتها لحياتنا الحاضرة فى هذه الآونة • وفى سنة ١٩٧٢ شهدت الـــكاتبة حفلا لهذه المناسبة فى مسجد زيوريخ بألمـــانيا ونقلت خطبة ألقيت جاء فيهـــا :

«منذ خمسة عشر قرنا تقريبا ، وفى بلاد كانت فى ذلك الوقت متخلفة وبعيدة عن الطريق ، اتجـــه الى غـــار حراء القريـــب من مكة ،رجل أعمال ناجح وحديث عهد بزواج سعيد موثـــق ليفرغ هناك الى حياة التأمل ، وفى سن الأربعين تمثل له الملاك جبريل فى صورة هزت كيانه هزا عنيفا ولكنه عرف أن الله اختاره نبيـــا وحمله رسالة سماوية ، وعندما مات فى سن الثالثة والستين كانت أعماله وتعاليمه قد غيرت حياة قومه تغييرا تاما ، ليس فقط فى العقيدة الطاهرة التى نشرها ، ولكنه غير الوجود كله تغييرا كاملا : وضع الفقراء والعبيد ، حقوق المرأة ، حماية الأقليات،كل هذه المسائل وغيرها وضعت فى وضع جديد يختلف عمـــا كانت عليـــه من قبل ، أعيـــد تنظيم السياســـة والاقتصاد ، وأشيعت حياة الديمقراطية والمساواة ، وكل ذلك لم يكن معروفا ولا مقبولا فى تلك الأيام •

وبعد مائة عام من حياة التأمل فى غار حراء ، كان الاسلام قد نشر مدنية جديدة ، وثقافة ناضجة ، من أواسط آسيـــا الى المحيط الأطلنطى ، وتحدت مدنيتـــه مدنيات سابقـــة ، ولـــكنها خلصتها من الانحطاط والبربرية ويجب أن نذكر أنه شخص واحد

بدأ هذه الثورة على ما غطى العالم من فساد ، وبـدأ يؤسس نهضة انتشرت فى أرجاء العالم المعروف ، ثم كتب له النجـاح فى كل ذلك .

كيف حدث هـذا ؟

ان النبى كان يكرر دائما أنه بشر كسائر الناس ، غير أنـه تلقى من الله وحيا هو القرآن الذى تحدى به وأعلنه وتمسك به . ووراء هذا الكتاب — القرآن — يكمن السر فى هذا النجاح ، وهو وحده كاف فى أنه من عند الله،وأن محمدا كان مبلغا رسالة ربه — وأن اخلاص محمد وتفانيه الكامل فى تبليغ رسالة الله ، هو الذى هيأ له هذا النجاح ، الذى سعدت به البشرية .

ويستمـر الحديث فيصف مـدى ما عاناه النبى فى سبيـل هذه الدعوة ، ومـا كلفته من صعوبات ، ولولا اطمئنانه وثقتـه بصدق رسالته ما تحمل كل هذه المشاق ، وبهذه الأخلاق الـكاملة فى كل جوانبها ، استطاع محمد أن يوفى بما كلفه اللـه . اصرار على الحق لا يعرف التهاون ولا الاستثناء ولا التراخى ، وكان متعدد الجوانب بدأ باصلاح العقيدة ، ثم شرع القوانين ، ولـم يكن مشرعا ولا ذا ثقافة سابقة ، ثم كان مخططا وقائدا للحروب وهو رب أسرة ، وزوج ، ووالد ، وصديق ، ومستشار لكثير من الناس ، ومـع ذلك كان يزاول أعماله فى الحياة كواحـد منا ،

ولكنه فى كل هذه الجوانب كان مخلصا لربه ، وعاملا لربته ، ومتبعا تعاليم ربه .

وختم المتحدث خطابه بأن مشاكل الحياة الحاضرة أصبحت متعددة وكثيرة ، ولا يمكن أن تحل الا فى ضوء التعاليم والأخلاق التى جاء بها محمد . ويمكن ارجاع المتاعب والمشاكل الكثيرة التى يعانيها عالمنا الى جذور بسيطة جدا ، ذلك أن بنى الانسان ومع شديد الأسف أخص المسلمين ورثة محمد — لا يطيعون الله ولا يتبعون تعاليمه ، ولهذا أخطأنا هدفنا الرئيسى .

وان دراسة حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعمق تهيب بدارسها وتبرز أمامه سؤالا صريحا : « هل أنت مستعد لأن تتبع القمة التى يريك الله اياها ؟ »

وشكر الله لمتحدث بمثل هذا الحديث فى بلد غير اسلامى .

ليس فى الخطاب على طوله جديد بالنسبة لنا معاشر المسلمين ولكنه يعتبر جديدا كل الجدة ، غريبا كل الغرابة على قوم يقرأون ما قدمته من كلام ولهم وأمثاله من المستشرقين ، وهذا ما جعلنى أنقل منه ما نقلته بكل هذا الايجاز .

وشكرا للمؤلفة أن أتاحت لعالم أوسع قراءة هذا الكلام .

* * *

وفى مقابلة حياة الفرد بحياة الجماعة ، قدمت المؤلفة مقدمة قد تبدو بعيدة بعض البعد ، اذ تعرضت لمصادر القانون الاسلامى

واقتصرت على القرآن والسنة ، وذكرت أن أعمال النبى وتصرفاته كأقواله سجلت من مخالطيه وأصحابه ، وهى فيما يبدو من ذكرها كافية فى توضيح ما أرادت من هـذا الموضوع ، ولـكنها نقلت الحديث أيضا كما هو المعتاد . وجاء فيما نقلت :

فى عالمنا الحاضر اليـوم يصطرع المعسكران — معسكر الرأسمالية ومعسكر الشيوعية أتقرير حقوق الأفراد وحقوق الجماعات ، فبينما ترعى الكتلة الرأسمالية حقوق الأفراد تتغالى فى هـذا السبيل ، حتى تتعدى على حقـوق الجماعات ، نجـد الشيوعية تتغاضى عن الفردية لأجـل المجتمع كـكل ، ونتيجـة الاتجاهين غير مرضية . والعالم الحـر — أو ما يسمى كذلك — يفخر بما ينتجه من حرية السياسة،وحرية التفكير والتعبير وتحت راية المشروعات الفردية أصبح الانحراف مثل الجشع والأنانية شيئا مقبولا،وحرية الشخص فى أن يكون ثريا أدت غالبا الى بؤس الفقراء . وحرية التفكير غيرت الى حرية الرجس والضلال .

وبنمو العقلية المادية ، وتحول الكثيرين اليها ، أصبحوا أقل ثم أقل اتجاها الى الله ، واهتداء بالديانات السماوية . والنتيجة لكل ذلك هى وجود مجتمع غـير سعيد .

واذا اتجهنا الى المجتمعات الشيوعية ، نجد مجتمعا غايـة فى السوء ، اذ لا يزيد الأفراد عن كونهم مجرد أحجار فى بنـاء المجتمع ، والمجتمع يبدو كخلية النحل ، أو مجرد مستعمرة غاية

فى النشاط والتدريب • وفى هذا الجو ينظر الى السمات الفردية كسياسة معارضة • ونظرا لأن تصور الاله لا وجود له فى هذا المجتمع ، كان من الصعب أن تجد مصدرا تستمد منه القيم والمبادىء مثل الضمير والمحبة ، وضبط النفس والاحسان وما اليها • والنتيجة التى لامفر منها أيضا وجود مجتمع غير سعيد •

ويبدو أن كلا الكتلتين — بعد هذه التجربة المريرة ، والنتيجة المحزنة — على استعداد لاعادة النظر فى نظمها •

فالكتلة الشيوعية أدركت من قبل أنه لا بد أن تسمح بممتلكات خاصة ضئيلة •

وفى الكتلة الرأسمالية وجد أنه لا يمكن التغاضى عن فرض قيود على الحقوق المطلقة للأفراد •على سبيل المثال رفع الضرائب وتقييد الملكية ، وسعادة الدولة ، ولهذا لا تزال العلاقة الفردية وصالح الجماعات لما توجد بعد •

وفى هذا الصدد يبرز السؤال عن وجهة نظر الاسلام ازاء هذه المسألة •

وانه لمن الممتع حقا أن وجهة النظر التى تذكر هنا ليست مأخوذة من الشيوعية ولا من الرأسمالية ، لأن الاسلام الذى أسس منذ أربعة عشر قرنا قد سبق الرأسمالية والشيوعية •

ان الاخاء والمحبة هما الرباط الذى ربط الأفراد المتباينين ليكونوا المجتمع ، وفى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » • •

وهذه التعاليم ليست مجرد نصائح أخلاقية،وانما هى مبادىء قانونية ، لأن الاسلام جاء بقاوانين ونظم تشريعية •

ولقد قرر الخليفة الثانى عمر قاعدة ذات أهمية ، وهى أنه اذا مات أحد المسلمين جوعا ، فان عقوبة هذا الموت الخطأ تقع على سكان المدينة التى هو فيها جميعا لأنهم تسببوا فى قتله ، اذ لم يقدموا له طعاما يدفع عنه الموت •

ويبدو أن الاجابة غير كافية ، ولعل المؤلفة اقتصرت على ما ذكرت خشية الاطالة • ولم يذكر هذا الدفاع شيئا عن مسئولية الفرد أمام المجتمع كما وضحها الاسلام ، وهى واضحة فى فرض ضريبة الزكاة الاجبارية حين يبلغ المال النصاب ، ثم الصدقات الأخرى الكثيرة ،منها ما يدفع للفقراء ، ومنها ما يدفع لبيت المال وهى فى أى حالاتها نوع من التضامن ، وللحاكم بجانب الزكاة أن يفرض ضرائب على القادرين لامداد بيت المال •

وبهذا النظام لا تمحى شخصية الفرد ويصير مجرد آلة ، ولا يضار الفقراء بزيادة مال الأغنياء •

فالاسلام يبيح للفرد أن يعمل بكل جهده ، وأن يجنى ثمرة كده وذكائه ، ولكنه يشترط عليه كسبا حلالا،لا غش فيه ولا خداع

وكل مال يضار به أفراد أو تضار به الجماعة هو حرام ، أي أن الاسلام حرم اثراء شخص على حساب الآخرين ، ولهذا حرم الربا بكل أنواعه ، بل حرم المعاملة التى فيها شبهة الربا •

ثم انه ثبت تاريخيا ، صلاح المجتمع وسعادته ، فى ظل هذا النظام الاسلامى • وقد شكا للوليد بن عبد الملك عماله من تكدس أموال الزكاة وليس ثمة فقراء تصرف لهم من هذه الأموال ، فكتب اليهم الوليد أن ابنـــوا بها مساجد وأسلحـــة • ، وغنى مجتمع ما حتى لا يبقى به فقير واحد من الأحداث النادرة أو المعدومة فى التاريخ كله ، فهذا لم يحدث فى البلاد الرأسمالية ولا البلاد الشيوعية ، ولا فى أى دولة كبيرة قديمة ، أو أخرى حديثـــة •

والحديث فى هذا قـــد يطول •

الحقـــوق والواجبـــات :

كثير من تعاليم الاسلام يحمل ثنائية طبيعية ، اذ نجد حـــق الانسان الطبيعى هو أيضا واجبـــه ، فالاسلام يحمى حقـــوق الجماعة بتكلف الفرد أن يكون محافظا على حقوقه • فمثلا حق التعليم الذى قرره القانون ،هو أيضا واجب على الشخص • وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم واجب على كـــل مسلم ومسلمـــة » •

وحق التعبير عما فى النفس هو أيضا واجب ، فحين تعتقـــد

أن شيئا ما حق ، يكون من الواجب أن تعلنه ، ومن الاثم أن تظل صامتا • وقد جاء فى الحديث«الساكت عن الحق شيطان أخرس» •

ويتصل بهذا أن تعلن الشهادة أمام القضاء • وفى القرآن : « ولا تكتموا الشهادة ،ومن يكتمها فانه آثم قلبـــه » •

وحق معارضة السياسة والنقد البرىء للحكام ، هــو أيضا واجب • وقد قال أول خليفة للمسلمين فى خطبته الأولى : •« ان رأيتمــونى على حــق فــأعينونى ، وان رأيتمونى على باطــل فقومونى » •

وسأل الخليفة الثانى ــ عمر ــ قومه : « ماذا ستعملون اذا أنا أخطأت » ؟ فوقف أحــد الحاضرين وقال : والله لنقومنك اذن بحد السيف ، وأجاب عمر « لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فى اذا لم أسمعها » •

أما حق العمل ، فهو مقرر بتحريم البطالة ، والاسلام لا يقبل احتراف التسول ، واذا أصبح الشخص غير قادر على العمل فان على الحكومة أن تعوله ، ومجتمعه مسئول عنه •

الحرية والاخاء والمساواة :

خلاصة ما جاء فى هذا الموضع ، أن المسلم قد يدهش حين يجد مؤرخى الغرب يرجعون بهذه المبادىء الى تاريخ الثورةالفرنسية ولا يذكرون شيئا عن الاسلام • هذا مع أن الحرية من المبادىء المقدسة فى الاسلام ، فأساس الحرية أن يخلص الانسان نفسه

من سيطرة عواطفه ورغباته ، وعلى سبيل المثال المقصد الأهم فى صيام شهر كامل هو شهر رمضان بالامتناع الكامل عن أى طعام أو شراب أو رغبة جسدية ... هو تدريب للشخص على أن يقول لنفسه « لا » فى الموضع الذى ينبغى أن تقال فيه هذه الكلمة وهذانوع شاق من الجهاد ، يعدل كسب معركة ، حتى يروى أن النبى قال مرة وهو عائد من الجهاد : « عدنا الى الجهاد الأكبر » ويعنى به جهاد النفس .

وهناك التحرر من رغبات الجسد ، ومن الخوف من الناس ، كلها مبادىء يؤكدها الاسلام ، وانما يكون الخوف من الله وحده ، وهذا كثير جدا فى القرآن ، وهذا ملحوظ جدا ، وخصوصا أن الاسلام يجعل الصلة بين العبد وربه صلة مباشرة ولا واسطة بينهما ، ومن ذلك الآيات : « فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » ، « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »

وليس القوى فى نظر الاسلام هو قوى الجسد ، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، وتلك اشارة الى قدرة الشخص على السيطرة على كل عاطفة له ، وكف نفسه عن التغالى فيها وفقا لقانون الاسلام .

أما بالنسبة للمساواة أمام القانون ، وأمام فرص الحياة ،

فهذه سنة الاسلام اذ لا يفضل شخص على آخر الا بالتقـوى والعمل الصالح ، وهذه جزاؤها من الله ••• الخ ••• الخ

ومرة ثانية نجد هـذا الدفاع دون ما جاء به الاسـلام من فرض الحرية والمساواة ، ولكن تفصيل هذه المبادىء يحتاج الى شرح طويل ، والى رجوع الى قوانين الاسلام وسياستـه مع الشعوب التى اتصل بها ومع الأفراد •

ويكفى أن يذكر هذا الكلام على ايجازه• غير أن اخبار الرجل الغربى بأن هـذا ما يتصوره المسلم عن الحرية والمساواة ، لا يعطى الصورة الكاملة •

نظام الأقليات فى الاسلام :

هذا بحث جزئى أيضا ، ولكن ما أوردته المؤلفة فيه كاف فى موضوعه :

ان المجتمع الاسلامى لم يكن مكونا من المسلمين وحـدهم ، بل كان معهم اليهـود والنصـارى ، وهم يعيشون جميعا تحت قوانين الاسـلام • وكانت المبادىء القانونية تطبق على الجميع بدون تفرقة بين مسلم وغيره وفقا لقاعدة : لهم مالنا وعليهم ما علينا •

والاسلام كدين لايضع نفسه فى معارضة مع الرسل السابقين وكلمة اسلام من معانيها الاستسلام لارادة الله وحده، ومادامت

الأديان الأخرى تعاليم من الله فهى ذات صلة بالاسلام والاسلام يحترم ذويهـــا •

وقد أحل الاسلام للمسلم أكل طعام الكتابيين اذا كان غير محرم فى الاسلام ، كالخنزير، أو شرب الكحول ، كما أباح له أن يتزوج الكتابية وتبقى معه على دينها •

وترك الاسلام بعد هذا للكتابيين أن يزاولوا طقوس دينهم، ويجروا عليها فى حياتهم الخاصة ، مثل الزواج والطلاق والميراث

وليست المساواة فقط أمام القضاء ، بل كانت الأقليات ذات حق فى ضمان الدولة الاجتماعى ، والتمتع بما يتمتع به المسلمون من مزاياه • وقد رأى عمر يهوديا أعمى يسأل الناس ، ففرض له من بيت المال ، وكتب للخازن أن يرعى أمثاله ، وقال « لقـــد أخذنا منه شابا فليس من العدل أن نهمله شيخا » •

سلطان الدولة ومسئولياتها :

ان الاسلام يزاوج دائما بين السلطة والمسئولية ، كما تفعل الآن الدول الراقية • كما نجد ذلك فى رسالة الامام على الى نائبه فى مصر • وهنا أوردت المؤلفة جزءا كبيرا من خطاب الامام على الى الأشتر النخعى ــ ثم جاء فى تعليقهــا :

هذه ومضات سريعة من نظام الاسلام •

وان بها كثيرا مما يقدم لعالمنا القلق، ولكن يبدو أنها أصبحت كنزا مهجورا •

ويا للأسف انه مهجور ممن يحملون اسم الاســلام ، ولهذا لا نعجب اذا وجدناهم يختلفون عن هذا الجلال الذى وصفت •

وما لم يرجعوا الى هذا القانون فانهم سيظلون على ما هم عليـــه •

انهم هكذا ضائعون فى المؤخرة من ركب الحضارة والانسانية

ان هذا هو الدواء وهو الضوء ، وهو هداية الله لهم وللناس أجمعـــين •

ويبدو أن هذا ليس كلام المؤلفة ، ولكنها لم تذكر المرجـع الذى نقلت عنه ، ثم وضعــه فى أسلوب شعرى من كلامها يدل على اهتمامها به •

هذا الباب على أى حال من الأبواب الهامة فى هذا الكتاب •

وقد يكون الكلام فى هذه الموضوعات هو الذى جرهــا الى الحديث عن أصول الاشتراكية العربية ، والتفرقة بينهــا وبين الشيوعية ، كما تحدثت فى هذا الصدد عن الميثاق الوطنى الذى وضعه ناصر ، وعن دولة العلم والايمان التى نادى بها السادات، وعن الأوضاع الاقتصادية المستحدثة فى العالم العربى• وضمنت ذلك كله الجزء الخامس من الكتاب • ولسنا بحاجة الى الوقوف لدى هذا الباب ، اذ الغرض الأساسى من كتابتنا هو الجــانب الاسلامى وحده •

***

والفصل السادس من هذا الجزء الثانى من الكتاب مخصص للحديث عن حياة الأسرة • وذكرت المؤلفة فى مستهله مقابلتها لأسرة مثقفة فى بيت المقدس ، ربها هو الأستاذ جميل ناصر المحامى المسلم • وقد دعت ابنته المؤلفة لزيارتها فى بيتها • وابنته كانت حينئذ وكيلة مدرسة المعلمات ، وكانت حديثة عهد بعودتها من الولايات المتحدة ، وهى واحدة من عشرة أولاد من بينهم طبيبان ودكتور فى الفلسفة ، وثلاث من أخواتها كن يقمن فى البيت نفسه منهن اثنتان ناظرتا مدرسة والصغرى مدرسة •

وقد سألت الكاتبة رب الأسرة المحامى ، عن روابط الأسرة العربية ، فأجابها بأنها لا تزال تربطها روابط المنفعة والمسئولية لدى كل عضو فيها ، صغيرا كان أو كبيرا •

حياة العرب الاجتماعية لا تزال تقوم على تقاليد قديمة ، الفرد مسئول عن الأسرة ، والأسرة مسئولة عن القبيلة أو عن المجموعة ، فاذا ارتكب فرد من الأسرة خطأ تحملت الأسرة كلها المسئولية معه ،واذا اعتدى عليه قامت الأسرة تلقائيا للدفاع عنه • ولهذا فان كل فرد يتصرف باحتراس ، لأنه قد يحاسب من الأسرة كلها على أخطائه ، وقد يورط الأسرة كلها فى مشكلة يكون هو السبب فيها •

والأسرة أيضا تتبع تعاليم القرآن •

فمن سنوات العمر الباكرة يعلم الطفل ألا يسبب مضايقة

لأقربائه ، أو يسىء والديه بأى سلوك غير مستقيم • ويشب الأطفال على هذه الروح • ومن النادر جدا أن تحدث جرائم أحداث مثل السرقة أو الاعتداء على الغير •

وبعد أن يتزوج الشاب يظل مرتبطا بأسرته : أبيه وأمه وأخيه وأخته وجده وجدته ، وهم جميعا شركاء فى مسراتهم وآلامهم •

وينشأ البنات على قدم المساواة مع الصبيان ،والزوج يرعى أقارب الزوجة ، ويعتبرهم من أسرته حتى الجد الرابع ، ولكن الأنثى بعد زواجها تظل تحمل اسم أسرتها ، وفى هذا دلالة على مسئولية والدها نحوها طول حياتها،ويزورها والداها فى مناسبات المواسم والأعياد ، ويحملان اليها الهدايا ، وهى لذلك تشعر بارتباطها بأسرتها •

وهكذا يجرى حديث جذاب طويل عن التقاليد العربية ، وعما اذا تسبب واحد من الأسرة خطأ فى اصابة آخر بعربته مثلا فنقل الجريح الى مستشفى وحقق البوليس الحادث ، ماذا تعمل الأسرتان فى حال نجاة المصاب أو حال موته •

حديث طويل وممتع كتبه الأستاذ جميل ناصر •

* * *

أما عن وضع المرأة ومكانتها فى نظر الاسلام ، فتذكر المؤلفة أن الاسلام وضعها فى مكانة عالية ، وأن التراجم الحديثة لنبى

الاسـلام توضح ما أدخله على حياة المرأة من تقدم ورقى ، وما قرر لهـا من حقوق ، والمتحررون فى الأيام الحاضرة يستطيعون أن يرجعوا بمبادىء تحررهم الى تعاليم الاسلام ٠

وفى مصر خطت المـرأة الى حرية أوسع ففى سنـة ١٩٢٣ عادت السيدة هدى شعراوى من مؤتمـر فى روما بغير خمـار ، ثم كانت رائدة الدعوة الى السفور ٠ ثم فتحت المدارس الثانوية للبنات ودخلن الجامعـة ، وبسرعة شديدة تبوأت المرأة مـكانة المساواة مع الرجل فى مختلف الوظائف ، ومنذ خمسين عاما تقريبا أحرزت المرأة فى كل الأقطار الاسلامية تقدما واسعـا ٠

وكانت هناك حركـة معارضة لهذا التقدم ، ربمـا من بعض السلطات الدينيـة المحافظة ، ولكن المرأة الآن سفرت وكاثرت البنين فى المدارس والكليات والوظائف والأعمال ٠

وتعرضت المؤلفـة لزواج النبى محمـد بعدد من النساء ، فدافعت عنه بأن ذلك لم يكن بدافع الرغبة الجسدية ، لأنه تخطى سن الشباب وهو مع زوجة واحدة ، ولكنه قائد وزعيم ومصلح أراد أن يتقوى بهذا الأصهار ــ والحديث منقـول عن الأستاذ سيـد ناصر ٠

وتحدثت عن الزواج فى الاسلام ، فذكرت أن السورة الرابعة فى القرآن هى سـورة النساء وأنها أباحت للرجال أن ينـكحوا ما طاب لهم منهن مثنى وثلاث ورباع ٠ ثم عرضت لرأى ذكـره

بعض الناس — وهو رأى غير صحيح — وهو أن القرآن قال — « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ثم قال — « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » — وبهذا قيد التعدد بما يمنعه — أما النبى محمد فكان قادرا على العدل بين النساء •

وهذا رأى واه ، استند من الآية على شطر وترك الآخر ، فبقية الآيةهو : — « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » والميل الى الزوجة حتى تصير الأخرى معلقة صريح فى التعدد، ثم انه الآية تتحدث عن المعاملة الزوجية والنبى نفسه صرح بأنه لا يستطيع التسوية فى العاطفة النفسية ، فقال : « اللهم هذه حيلتى فيما أملك فلا حيلة لى فيما لا أملك » •

والذى شدد التركيز على هذا الرأى — أى منع التعدد لتقييد احدى الآيتين بالأخرى — هو سيد أمير على الزعيم الهندى المعروف فى كتابه « روح الاسلام » وهو متأثر بالحياة الأوروبية ، ويريد أن يجعل الاسلام قريبا من حياتهم • ورد هذا الرأى كثيرون ، منهم الشيخ رشيد رضا فى تفسيره — ثم ان الصحابة على عهد النبى كان لهم عدد من الزوجات ، ولم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم على واحد منهم هذا التعدد ، وليس أمير على ولا أمثاله بأعلم بتفسير القرآن ومبادىء الدين من أصحاب رسول الله •

وأوردت الكاتبة دفاعا عن هذا التعدد من وجهة نظر المسلمين وأنه قد يكون ضرورة اجتماعية ، وأنـــه فى بعض الأحيان يكثر النساء جدا بسبب ضحايا الحروب ، فيصرن مصدر فساد أو مثار شبهة ، أويعشن حياة حرمان من البيت والولد •

كذلك تحدثت عن الطلاق ، وعن تنظيم الأسرة،وعن الاجهاض ـــ وهذا الأخـــير عن الدكتور حسن حتحوت فى حديث ألقـــاه فى مؤتمر عقدته جمعية الأبوة العالمية للتخطيط ، وفى هـــذا الحديث فرق المحاضر بين الاجهاض ومنع الحمل ، وبين أن الأول اعتداء على حياة جنين منتظر ، وأن الامام الغزالى اعتبره جريمة ضـــد الوجود نفسه ، لـــكن هناك حالات تدعو له مثـــل تعرض الأم للخطر قبل الولادة أو أثنائها ، ورأى الدكتور حتحوت فى جملته يتفق وتعاليم الاسلام ، والمؤلفة لا يعنيها أن تعرض بدقة حـــكم الاســـلام ، وانما يعنيها أن تعرض عقلية المسلم ، وهذا أحـــد المسلمـــين •

والفصل السابع من هـــذا الباب مخصص للحديث عن الآباء والابناء ، وهو فى جملته لا يخرج عما هو معروف فى الاسلام من حقـــوق الوالدين على أولادهما وواجباتهما نحـــوهما ، وكذلك ما حدده الاسلام وبينه للأولاد تجاه الأبوين، لكن الكاتبة أوردته فى هذا الباب فصلين غريبين عن عنوانه أحدهما اسلام عمـــر بن

الخطاب ، وأنه كان ذاهبا لقتل محمد ثم اتجه نحو اخته فلما سمع القرآن هناك لان قلبه لذكر اللـــه • والثانى حديثها عن مريـــم وولادة عيسى من غير أب • وأوردت الآيات الخاصة بهذا الميلاد من سورة آل عمـــران •

ونحن يعجبنا أن تعلن الكاتبة عن الاسلام ايمانه بأن عيسى عليه السلام ولد من غير أب ، فهذا الجانب الروحى مفقـــود فى اليهودية ، وما يزال اليهود الى الآن يعلنون أنه ابن يوسف النجار وأساس الديانات هو الايمان بالغيب ، وأيضا الايمان بالمعجزات •

الجهــــاد

هذا الباب ذو أهمية كبيرة ، وقد عرضته الكاتبة فى شىء من الافاضة ، وهو جدير بذلك ، لأن كثيرا من المستشرقين خبطـوا فيه خبطا واسعا ، وكثيرا ما اتخذوه ذريعة لتشويه الاسـلام وأنه فرض نفسه على الناس فرضا ، ولم يدع حرية التفكير فى اختيار الدين الذى تطمئن اليه نفوسهم . وينتقلون من هذا الـى اتهامه بالعدوان على الكتابيين ، وظلم أولئك وهؤلاء جميعا .

ومن المستشرقين من عد الجهاد ركنا من أركان الاسلام،وهذا يقتضى أن على كل مسلم أن يخوض حربا والا كان غير مسلم ، وكل ذلك أضفى على الاسلام صورة رهيبة سوغت وصف المسلمين بالهمجية ووصف الاسلام بأنه دين البدائيين،وأنه يصطبغ بطباع البدو والصحارى .

وحقا ان من المستشرقين من أغضى عن هذه الصفات ، ومنهم من دافـع عنها ونفاها ، ومنهـم من اعتبرها من الصفات التى توهمها كتاب العصر الوسيط ، وقد أصبحت داحضة الحجـة ، ولا ينبغى أن يلتفت لها . ومع كل ذلك لا تزال باقية على ألسنة الـكثيرين .

وليس كل ما أوردته الـكاتبة فى هذا الباب دقيقا مقبـولا ، ولـكنها وقد لجأت الى بعض المسلمين استطاعت أن تنقـل الى القارىء الأوروبى صورة أقرب الى الدقة ، أو على الأقل وجهـة نظـر اسلاميــة .

وقد عرضت هذا الباب تحت عدد من العناوين الجزئية ومنها عنوان « انتشار الاسلام » وليس جيد العرض ، ونحن على أى حال ثبت أن الاسلام يحارب الوثنية ، ويحارب الوثنيين ولكنه يدع الكتابيين على ما هم عليه ، حتى المسيحيين الذين حوروا المسيحية تحويرا واسعا وأخرجوها الى وثنية أو ما يشبهها ، عاملهم الاسلام معاملة المسيحيين ، وكان الصابئة يدفعون الجزية كما يدفعها المسيحيون لأنهم ينتمون الى أصل مسيحى .

وأصدق ما جاء فى هذا الحديث أن حروب الاسلام كانت لنشر فضائل ومبادىء انسانية ، ولم يكن الغرض منها التملك والسيادة ودليل هذا الصدق أن الذين كانوا يدخلون الاسلام كانوا يعاملون معاملة المسلمين بدون أية تفرقة ، والقبائل التى قبلت الاسلام أعفيت من دفع الجزية للمسلمين .

وبالرجوع الى متحدث اسلامى — قسم الجهاد الى قسمين طبقا لما ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » .

والجهاد الأكبر يعنى أن يتغلب الانسان على غرائزه البهيمية والشخص عادة مفطور على التعالى ووضع نفسه فوق الآخرين لكن الاسلام يهيب به دائما أن يعترف بحق الغير وألا ينتقص ما لدى غيره من ميزات ، وهذا جهاد ليس باليسير .

ونحن نزيد على ذلك أن أشنع وأسوأ ما توسم به الشعوب أن تسود بينهاهذه الاخلاق ، أنها تفسكك بناء الأمـة الداخلى ، وتجعل بعض أبنائها عـدوا لبعض ــ ثم لا تقوم بينهم علاقـة تعاون وعمل لصالح المجمـوع • وما أشقى الحكومة التى ترعى شعبا له هذه الصفات • وقد نجح الاسلام حقا فى غرس صفات الانسانية من التضحية وحب الخـير للناس ، وكبـح الشخص غرائزه البهيمية ، والتسامى بها الى درجة لم تتوفر لأمة غير الأمة الاسلامية ، وهذا ما هيأ للمسلمين انتصاراتهم •

ولسنا نقطع بصحة الحديث ، ولكننا نقطع بانطباقه ، كما أننا نقطع بأن جهاد النفس من التدريبات الأخلاقية ، التى تستدعى مجهودا كبيرا ومستمرا ، والناس فيها درجات ومنازل متباينة •

وأما الجهاد الأصغر ، فيقسمه المتحدث أيضا أقساما ، منها الحرب للدفاع عن النفس والعرض والمال ، وهو أمر مشروع تقره طبيعة الحياة • وكذلك الدفاع عن المجموعة لأنه نوع من التضامن والشعور الانسانى •

ويقول المتحدث ان الانسان يستطيع أن يستخلص من أحداث التاريخ وقائع حروب لا تنطبق عليها مبادىء الاسلام ، ولـكن هذا حدث لأن الذين شنوا هذه الحروب لم يمارسوا الجهـاد الأكبر وهو جهاد النفس •

وينتقل المتحدث الى نقطة أخرى تتعلق بانطبـاعات الغرب

عن حروب الاسلام ، يذكر أن العقلية الأوروبية لا تزال متأثرة بأحداث التـــاريخ ، وما كان بين الغرب والشرق من عـــداء لم ينقطع مده وجزره الى الآن .

لقد بدأ المد من قبل المسلمين نمغزوا المسيحية فى بلادها غزوا فـــكريا وغزوا عسكريا ، ولم يكسب الاســـلام أراضى وبـــلادا مسيحية فقط ، بل ربح أيضا أن نشر فكره وفلسفته ، وحـــول جماعات كثيرة من المسيحية الى الاسلام . ولم يقف ذلك عنـــد الشعوب الشرقية ، بل عبر البحر ليكسب بلادا أوروبية . ثم كان رد هذه الضربة بالحروب الصـــليبية التى قامت باسم المســـيح وباسم الصليب ، وقد ارتـــكبت هذه من المناكر والسوءات بمـــا لا يمكن أن نضعها موضع الموازنة مع حروب الاسلام ، ثم جـــاء العثمانيون فردوا موجة المد الاسلامى الى جهة الغرب . ثم جاء نابليون فرد الضربة باحتلاله مصر ، وكانت هذه بداية للاستعمار الحديث الذى بسط سلطانه على البلاد الاســـلامية من مراكش الى أندونيسيا .

والآن يزاول الغرب غزوا جديدا ضد الشرق . انه يريد أن « يغرب » الشرق ــ أى يمحو شخصيته الشرقية ، ويغير ذاتيته نهائيا . والاســـلام لم يفعل ذلك . لقد كان الرجـــل اليهودى والمسيحى يعيش فى ظل الاسلام وبين الشعوب الاسلامية وهو على دينه ، وله شخصيته وذاتيته اليهوديـــة أو المسيحية ، أما

الجهاد الغربى الآن فانه يعمل على محو الشخصية الشرقيـــة .

ان العمل الغربى الآن لا يعدو أن يكون عدوانا على الطبيعة نفسها .لقـــد غير العـــدوان كل شيء حتى الغابات والأنهار . والمحزن فى هذا كله أن المنفعة الشخصية أتخذت أساسا لكل عمل وعندما ينكر الانسان وجود الله يصير الانسان نفسه الهـــا .

والانسانية الحديثة فى جوهرهـــا هى عبادة الانسان لقـــد وضعت الانسان وراء كل شىء ، ومقياس كل شىء ، ومركز كـــل شىء حتى جعلته مركز الـــكون كله ـــ وهـــذا الانسان يرفض أن يرتبط بأى شىء ، وبذلك هو مقدم على تحطيم نفسه،وهو بلا ريبه قد حطم انسانيته .

لم يكن الانسان فى تاريخه الطويل يوما ما أخطر على نفسه منه فى هذه الأيام ، وذلك من نقـــص الجانب الروحى فى حياته ، أنه ينقصه أن يدرك الصلة بين آماله التكنولوجية وبين المشـــاعر الروحية ، والقوى المادية لا قيمة لها بدون القوى الروحية .

ولكى ندفع هذا الخطر المدمر على حياة البشرية والانسانية ـــ لا بد أن نعود من جديد لمعالجة غرائزنا وميولنا البهيمية ، أى أن العالم كله الآن فى حاجة الى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس.

هذه خلاصة ما نقلت الكاتبة عن أستاذ كبير .

وكثيرون غيره شكوا من طغيان الروح المادى، وأنذروا بسوء

عاقبته ، وقد ذكرت فى غير هذا الكتاب ما تعانيه الشعوب التى تعيش حكم المـاديين • وكثـيرون عالجوا هذا الأمر فى قصص وروايات ، ولكن تيار المادية لا يزال فى دور مده •

ونحن نذكر بجانب هذا مدى حرص الاسلام فى فتوحاتـه وحضارته على أن يكون الجانب الروحى هو أسـاس كل شىء فيها ، وكل عمل من الأعمال يوجه الى الله تعالى ويعتبر نوعا من العبادة ــ الحاكم يراقب الله ويخشى حسابه فى رعيته ، وكل فرد من الرعية يراقب الله ويخشى حسابه ازاء حاكمه وازاء اخوتـه من أبنـاء الأمة •

ان الجانب الانسانى مرعى فى كل شىء ، وكل عمل انسانى عبادة • ولنذكر أن هناك فرقا بين من يـؤدى الواجب خوفا من القانون ، ومن يؤديه خوفا من اللـه • وما يسمى رقابة الضمير لايـكفى أبدا أو يقوم مقام الخوف من اللـه •

اذن ــ مرة ثانية ــ لا بد من العمل على احيـاء الضمائر أو مزاولة الجهاد الأكبر أو بعبارة أخرى لابد من الجهاد الجاد لاحياء المشاعر الدينية ، وايقاظ العواطف نحو تعاليم الاسـلام •

بهذا نرى أن عمل الواعظ ليس مجرد توجيه نحـو العبادة والسلوك الفردى ، ولـكنه فوق ذلك ــ أو نتيجة لذلك اصـلاح اجتماعى ، أو هو قمة الاصـلاح ، وغاية ما دعا اليه الفلاسفـة والصالحـون من رجال العلوم الاجتماعية •

وفى الحديث عن نظرية الاســلام بين جنس وجنس ، ودين ودين ، رجعت الكاتبة الى عديد من المشهورين من رجال الفـكر فى العالم الاسلامى ، لكنها اعتمدت فى الجانب الأكبر على كل من الدكتور عبد الرحمن عزام ، وهى قــد قرأت كتابه ، «الرسالـة الخالدة » فى طبعته الانجليزية ، والكتاب مترجم الى لغات كثيرة — وليس فى كل مــا عرضت ما يعــد جديــدا بالنسبة للقارىء العربى — غير أن الدكتور عــزام بما له من اتزان فــكرى عرض للحضارة والأجناس ، وقــال ان الحضارة لا تختص بجنس ولا عنصر ، ولكن الحضارة لا تكون ذات قيمــة ولا شيئا يستضىء به الانسان فى حياته ما لم تكن مرتــكزة على أساس روحــى ، وما يسمى حضارة حقا ليس هو القوى المادية ولكنه الأخــلاق والجانب الروحى — وفى هذا يتصف الاسلام بعمى الألوان ، فهو لا يفرق بين أبيض وأســود •

وفى هذا الصدد ذكرت صلة الدكتور عزام بمالكولم اكس — وهذا الرجل الزنجى كان قد تعرف على الاسلام وأدى فريضــة الحج،وقد آواه الدكتور عزام فى جده وشهد له بحسن الاسلام، كى يسمح له بدخول الأرض المحرمة على غير المسلمين — وقد عانى هذا الرجل فى امريكا كثيرا بسبب اسلامه ، ثم مات مقتولا ، وكان أبوه قد اغتيل من قبل • والغرض من ذكره هــو بيان ما تفعلــه أمريــكا فى القرن العشرين بالملونين ، وأنها مع الدعوة المــتكررة

للرفق بالانسانية ،وتقدير الناس على حسب انسانيتهم ومواهبهم لا تزال هذه الدعوة صوتا ضائعا ، بينما كان هذا الصوت مسموعا منذ أربعة عشر قرنا فى البيئة الاسلامية ، وظل المسلمون يرعونه بعد ذلك • وقد قال عمر : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ـــ وهـــو يعنى بلالا الحبشى، فسوى بينه وبين أبى بكر فى السيادة •

وتذكر الكاتبة أن العالم الاسلامى منذ ولادة الاسلام ، كان يحوى كتابيين من اليهود والنصارى ، ولما امتد الى بلاد بعيدة ، كان فى الشرق الأقصى عــديد من الديانات بجانب الاســـلام ، ووسعتهم جميعا سماحته ، وقد استفادت الأديان الأخرى كثيرا من الفكر الاسلامى ــ والعالم المسيحى اليوم يتحمل مسئوليـــة عامـــة بالنسبة لباقى الأمم ، ولـــكنه لا يلتفت الا لمن يدينـــون بالمسيحية ـــ وهذا على عكس ما كان فى الاســـلام •

ومما يستحق الاشارة اليه فى هذا الصدد ثلاثة أمور جاءت فى هذا الباب ، أولها مقابلة جرت بين المرحوم الشيخ محمـــود شلتوت ـــ وهو شيخ للأزهـــر ـــ وسفير كندا فى ذلك الـــوقت وفى هذا الحديث طرح السفير أسئلة كثيرة حول علاقة الاسلام بالأديان الأخرى ، وعلاقة الشعوب الاسلاميـــة بالشعوب التى لا تدين بالاسلام ، وكانت الأسئلة على شىء من الدقـــة •

وخلاصة ما جاء فى كلام الشيخ شلتوت ، أن الاسلام لايعتبر الديانات الـــكتابية بعيدة عنه ، وأن المسلمين أيضا لا ينظـــرون

الى أتباع الديانات الأخرى نظرة عداء ــ ذلك أن الاسلام يؤمن أن كل الأنبياء والرسل جاءوا برسالة واحدة ، وأنهم جميعا دعوا الى توحيد الله • ورسالة نبى الاسلام هى رسالة الأنبياء من قبله لهذا يحترم المسلمون الأديان الأخرى ، ويحترمون أتباعها ــ ولكن العداء يأتى من غير المسلمين ، لأنهم لا يؤمنون برسالة النبى محمد ــ ولا يؤمن بعضهم بنبى البعض الآخر ، فبينما يؤمن الاسلام بموسى وبعيسى وبالأنبياء من قبلهم ــ لا يؤمن المسيحيون ولا اليهود برسالة محمد ــ ولا يؤمن اليهود بنبى النصارى ، ولا النصارى بنبى اليهود ــ واذن فالعداء من عندهم وليس من عند الاسلام ولا المسلمين •

وفى الاجابة عن سؤال عن الصلة بين هذه الأديان التى تؤمن بوجود الله وكيف يمكن أن تتعاون على حرب المادية ، أجاب الشيخ أنها لا يمكن أن تحدث بواسطة المؤتمرات التى تجتمع وتنفض كما اجتمعت ــ ولكن يجب أن تعنى كل جماعة أن تتفهم وجهة نظر الجماعة الأخرى، بعيدا عن التأثر العاطفى ــ والأزهر من قبله خطا هذه الخطوة ، ففضلا عما تحتويه مبادىء الاسلام التى تدرس فى الأزهر من احترام الكتابيين ــ بدأ الأزهر الآن يدرس اللغات الأجنبية ليدرس أفكار هؤلاء دراسة أعمق ، ليكون على صلة أشد بهؤلاء الناس بسبب دراسة أفكارهم ، والأمر متروك للآخرين أن يسلكوا الطريق نفسه ــ فعليهم أن يدرسوا

اللغة العربية ، ويفهموا الفكر الاسلامى عن كثب ليعرفونا على حقيقتنا ، فاذا فعلوا ذلك أمكن أن نتــلاقى فى منتصف الطريق ، وأمكن أن نقوم برسالة الذين يتبعون دين الله،ونستحق أن نسمى حملة رسالة اللــه •

وكانت هذه المقابلة فى سنة ١٩٥٩ •

والأمــر الثانى ــ هو احتفاء الحـكومة المصرية والأزهــر الشريف بالكاردينال • « فرانسيسكو كوينج » ــ من فينا • وقد دعته جامعة الأزهر وهى المركــز المعترف به مــركزا للدراسات الإسلامية فى العالم كله •

وكانت المحاضرة بمناسبة استعداد الأزهــر للاحتفال بعيده الألفى ، وهو جامعة عريقة سبقت جامعات أوروبا فى الوجــود بزمن طويل •

وكان الموضوع الذى اقترح للمحاضرة هو ديانة التوحيــد فى العصر الحديث ، وكانت المحاضرة فى قاعة الشيخ محمد عبده، وكانت فى آخر مارس سنة ١٩٦٥ م •

ويبدو أن الكاردينال أقام فترة طويلة فى القاهرة لأن الحكومة احتفت به فى ديسمبر سنة ١٩٦٤ •

لقد كان طريفا حقا أن تقابل عباءة الكردينال القرمزية عمائم الشيوخ البيضاء ، وجببهم السوداء فى شىء من السعادة ، وبعيدا عن أى عداء •

وقالت الكاتبة انها شهدت هذا اللقاء ، وكانت تتخيل تيارين من التاريخ يمتزجان فى هذا اللقاء ، وقدرت احتفاء شيخ الأزهر ومدير جامعته وعمداء الكليات ، ورجال النفوذ فيه يحتفون برجل دين مسيحى ، وقد صافحة المدير وقدمه الى القاعة التذكارية ، التى تحمل اسم المجدد الاسلامى الكبير الشيخ محمد عبده ، ذو العقل المتحرر ، ولا بد أنه كان يدهش كثيرا اذا رأى هذا المنظر وكان المستمعون فيما تقدر نحو ألفين ، ولكن الصحف فى اليوم التالى ذكرت عددا أكبر كثيرا من ذلك،وعقب انتهائه من محاضرته دوت القاعة بالتصفيق لمدة طويلة ، ولم يقتصر الجمع على طلاب الجامعة الأزهرية ، بل انضم اليهم طلاب من المعاهد ، وهـؤلاء الذين سيكونون قادة المسلمين فى الجيل المقبل ، لم يبالوا أن يكون بينهم أقباط من كبار القسس ومن صغار المتعلمين .

هذا اذن لون من ألوان التسامح الأسلامى .

وتذكر المؤلفة أن الشيخ الباقورى أيضا دعى لمحاضرة فى فينا ، كما أن الفاتيكان خصصت بها قسما لدراسة الشئون الاسلامية ، وأن الدكتور صبحى المحمصانى المحامى العالمى فى بيروت كتب حديثا ضافيا عما أضفاه الاسلام من صبغة انسانية على علاقات الأمم والأفراد ، مشيرا الى ما جاء فى القرآن الكريم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأشار الى أن الاسلام

بهذه الروح يمكن أن يمد يده الى مادعا اليه الكردينال من تآخر الدينيين وأن الاسلام يمكن أن يقابل المسيحية فى طريق جديد وأنه الطريق الذى يتعاونان فيه فى الساعات الحرجة من تاريخ الانسانية ، وأن يتجها بكل شىء الى الله تعالى .

وباختصار هذا الاتجاه هو الطريق المستقيم للمؤمنين حقا من كل الديانات ، أما الاحقاد والكراهية والتنافس فيجب التخلى عنها ، ولكن لا الى علاقات سلبية بل الى علاقات ايجابية وتعاون مثمر على أوسع نطاق مثمر .

ومن هذا الحديث الأخير نلمح مدى تمسك المؤلفة بمسيحيتها وندرك أن كتابتها عن الاسلام لا تعنى أى ميل اليه .

وتوكيدا لهذا التقارب ذهبت تنقل مقتطفات من أقوال المشهورين الذين قابلتهم هنا وهناك ومنها :

اليهودية تضع تركيزا على العدالة والحق ، والمسيحية تعتمد على المحبة والصدقة ، أما الاسلام فانه مبنى على السلام والاخاء ، ولكن لا ينبغى أن نهمل التشابه بين هذه الثلاثة الأديان .

والقرآن يهيب بالكتابيين : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

اننا بحاجة الى أن نقدر معتقدات الآخرين ، ولا بد أن يكون هذا مع فهم حقيقى ، ولا ينبغى أن نركز أنظـــارنا على ما بين الديانات من فروق •وحيث أن المسائل التى تقوم عليها الديانات هى الايمان بالسماء وجهنم والخلاص • • كيف يمكن أن نختلف فيمـا بيننـا •

وختمت هذا الفصل بقصة عجيبة •

قالت انه فى سنة ١٨٩٠ دخل أحـد الأرمن مسجدا وسـأل عمن يعلمه ، فقادوه الى أحد الشيوخ ،فأخذ يشرح له مبـادىء الاسلام ، وأبدى الأرمنى له غاية الاجـلال ، ثم قال له : اننى قررت أن أعتنق الاسلام ، لأننى أدركت أن تعليمك وحياتك خير من المسيحية التى كنت عليها • وأمسك الشـيخ وقـال له : ان فعلت ذلك فانى لن أضع يدى فى يدك ولن أعلمك ، ليس هنـاك ما يدعو الى ترك دينك لتكون رجلا خيرا مما كنت ، تذكر أسرتك وأثر الانقسام الذى ستحدثه بينها •

ونحن لا نكاد نصدق هذا ، أو نتهم الشيخ المسلم بقصور النظر فان القرآن يقول :«وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » •

وما يدرى الشيخ لعـل الأسرة كلها تدخل الاسلام ، فـلا

يكون ثمة أى انقسام ، وما دامت المسيحية ذات تسامح كما ترى ويرى من نقلت عنهم فلم يحدث انقسام بسبب اعتناق شخص الاســلام ؟

والأمر الثالث الذى جاء فى هذا الفصل ، هو حديث المؤلفــة عن القصة الجميلــة ، التى كتبها المرحوم الدكتــور كامل حسين بعنوان « قرية ظالمة » ــ والقصة معروفة ، وقد وضعت باللغــة العربية ، ونال مؤلفها عليها جائزة الدولة ، وهى تتحدث عن قرية « بيت المقدس »وما اتصف به اليهود من أحقاد وأنانية وجشع ، وأنهم ألفوا تكذيب الأنبياء ، حتى هموا ــ بقتل المسيح ، وهم فى الواقع ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم •

والقصــة تسجل اللعنــة على بنى اسرائيل الذين صلبوا ــ ضمائرهم ، وقتلوا مشاعرهم الانسانية • أما المسيح فانه لم ــ يصلب ، بل رفعه الله اليه •

ولست أرى لهذه القصة مساسا كبيرا بالموضوع ، ولكنا نلمح السبب الذى دعاها الى اختيارها ــ وهو نفى الصلب عن المسيح وأن الله رفعه اليه ، وعلماء المسلمين يختلفون فى معنى هذا الرفع ــ والرأى الناضج يعنى أن الله جعله أسمى من أن تنال منه يــد البشر ، والمسيحيون يعتقدون أنه رفع بعــد صلبه الى السمــاء بجسده وأنه جالس عن يمين أبيه ، ويتولى يوم القيامة معه حسابه

الناس . وكلمة رفعه الله اليه ، قد أخذت بظاهرها أيضا عند بعض المفسرين الاسلاميين .

وعلى أى حال لست أرى مسوغا كافيا لدس الحديث عن هذه القصـــة فى فصل يتحدث عن رأى الاســـلام فى علاقات الأديان بعضها ببعض .

وبوجه عام كثيرا ما تستطرد الكاتبة ، وتدخل فى كتابتها أشياء ليست فى صميم البحث .

الاسلام فى بريطـانيا

هذا فصل يستحق أن نقف لديه قليلا أو كثيرا •

والواقع أن الكاتبة لم تقف فيه لدى الحديث عن الاسلام فى بريطانيا وحدها ، بل تحدثت أيضا عن الاسلام فى بلاد أوروبية أخـرى •

وقد ذكرت أن عدد المسلمين فى بريطانيا يصل الى المليـون ، وأظن أنه يزيد على ذلك ، وهناك فئات مثل الأحمدية القاديانية ، والبهائية ، لا تعد طبعا بين المسلمين،وان تسموا باسم الاسلام، ولكن الأوروبيين يحسبونهم مسلمين •

وهناك عدد كبـير من المسلمين المبعوثين يعملـون فى المحال التجارية ، ويتولون بعض الوظائف الفرعية ، الى جانب تلقيهم الدراسات التى ذهبوا اليها فى جامعاتهم ومدارسهم ، كما أن هناك من يذهبون للعمل وليس لهم من الدراسة نصيب ـ ولكن هؤلاء جميعا يعكسون من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ صورة عن الاسلام ، والبريطانيون يحكمون على الاسلام من خلال هؤلاء جميعا • وهذه صورة ليست خاصة بالبريطانيين،ولكن الأوروبيين فى كل بلد يقفون من الاسلام هذا الموقف •

وقد قابلت فى انجلترا عـددا من المسلمين البريطانيين وكان اكثرهم ممن عاش فى الشرق زمنا ما، وقليلون جدا عرفوا الاسلام وهم فى بلادهم ، وكان ذلك يرجع الى حال المسلمين الذين لاقاهم

هؤلاء واختلطوا بهم • فكثـيرون من المسلمين بهرتهم حضـارة الغرب ونظم الحياة هناك ، فحولوا أنفسهم اليها ، وكانوا سلبيين أكثر منهم ايجابيين ، ولم يتركـوا فى نفوس الذين عاشروهـم أى أثر عن الاسلام • وكثيرون تركوا عن الاسلام أسوأ الأثـر ونفروا الناس من الاسلام والمسلمين •

والرجل الأوروبى بين أثنين من الناس :

أما شخص لا تعنيه الحياة الدينية ، ولكنه نشأ على ما عليـه والداه وذووه ، فهـو مسيحى أو غـير مسيحى بالتقليـد ، ولا يعنيه من الأمر أن يبحث حقيقة هذا الدين أو ذاك •

وأما شخص قرأ شيئا عن الأديان ، ولـكنه قرأها عن كتاب بلاده ، وهـؤلاء ليسوا مسلمين ولا مسالمين للدين الاسـلامى ، فكتابتهم تدع فى نفوس هؤلاء صورة من أسوأ الصور وأشدها تنفيرا عن الاسلام •

وقد أنشىء المركز الاسلامى فى لندن فى سنة ١٩٤٣م فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان انشاؤه عمـلا سياسيا ، أرادت به انجلترا أن تعقد صلة بينها وبين مسلمى الشرق ، فدعت سفراء الدول الاسلامية فى لندن ـ وكانـوا سبعة بينهم سفير تركيـا وسفير ايران ، وكان السفير المصرى رئيس المجلس الذى تكون من هؤلاء السفراء لادارة هذا المركز ، وتحملت مصر راتب مديره الذى كان مديرا واماما ، ولم يكن عدد المسلمين اذ ذاك كثيرا •

أما المركز نفسه ، فهو قصر لاحدى الأميرات ، كانت قد ماتت ولا وارث لها ، وكان مبنى أنيقا يتوسط حديقة كبيرة ، وتبلغ مساحته ما يقرب من فدانين ، واستعمل الطابق الأرضى منه مسجدا ، أو على الأصح استعملت احدى حجراته مسجدا ، وظل المسلمون يتزايدون فشغلوا فى صلاة الجمعة حجرة وأخرى والبهو الكبير الذى يتوسط الحجر ، ثم كان لا بد من انشاء مبنى جديد يتسع لعدد المسلمين الذين ظل يتزايد يوما بعد يوم ..

ولم يكن انشاء هذا المركز أمرا هينا فقد توقفت الحكومة البريطانية طويلا فى انشائه ، وكان من حججها أن انشاء مبنى له قبة ومئذنة يخالف نظام المبانى فى البقعة التى يقع فيها المركز ، وظل الأمر على ذلك سنوات حتى سمحت أخيرا باقامته ؛ وكان هذا السماح يرجع أيضا لظروف سياسية ، كما أن انشاءه من أصله يرجع الى أسباب سياسية .

وخلال هذه السنوات قامت مساجد أخرى ، بعضها بيوت أو أجزاء من البيوت اتخذت للصلاة ، وبعضها أنشىء من أول أمره ليكون مسجدا ، وأقدم هذه المساجد فيما أذكر هو المسجد الذى فى « ووكن » وهو مسجد صغير يقع فى بقعة واسعة على نظام المساجد الهندية والباكستانية ، وكانت احدى السيدات قد أنشأته للمذهب الأحمدى القاديانى — ولكنه تحول أخيرا الى المذهب السنى، والمسجد ليس بعيدا عن لندن، ولكن هذه الضاحية لا تؤهل

المركز ولا تهيئه لزيارة الـــكثيرين ، لهذا اتخذ أتباع الأحمــدية مركزا لهم فى لندن ذاتها

ويلى هذا المسجد مسجد آخر يقـــع فى شرق لندن ــ أقامه الباكستانيون ، وهو أكبر من هذا المسجد السابق ، وأكثر نظاما ، ويؤمه عدد كبير من المصلين ، ويقوم للمســـلمين بالاشراف على شئون الموتى من غسل وتكفين ودفن • أما صلاة الجمعة فيه فلا تفيد المصلين بشىء علمى ، اذ خطيب المسجد ليس بذى حـــظ من الثقافة • وقام بالصلاة فيه مدة طويلة عامل مصرى يعرف القراءة والكتابة ، ولاحظ له أصلا من الثقافة ، وحضرت خطبته فى أحـــد أيام الجمع فرأيته يضـــع بجانب المنبر كتابا به بعض الآيـــات القرآنية ، فكان يقرأ سورة قصيرة فى الخطبة الأولى ، وأخرى فى الخطبة الثانية ، ثم يؤدى الصلاة ، والمصلون لا يعرفون اللغـــة العربية ، وهم بهذا يؤدون عملا رسميا لا غير •

وأغلب المصلين يتجهون الى المركز الاســـلامى الذى ذكرت فهو المسجد الرئيسى فى بريطانيا كلها ، ويؤمه يوم الجمعة عدد كبير من المصلين ، ولا يزال الى الآن يعتمد على امام أو أئمة من مصر ومرتباتهم على حساب الأزهر • ولـــكن المركز فى تطوره المستمر ، أصبح له مدير أو أكثر من غير مصر ، والمدير يشرف على الجوانب الادارية ، أما الامام فهو الذى يقوم بشعار الدين •

ويوجـــد فى غير لندن مساجـــد أخرى ، أنشأتها الجـــاليات

الاسلامية ففى كرديف وليفربول وبرمنجهام وساوس شيلد مساجد ، وملحق بها مدارس لتعليم اللغة العربية وشئون الدين، ومع صغر هذه المراكز وضآلتها بجانب المركز الرئيسى فى لندن أعتقد أنها تؤدى رسالة أقوم — ذلك لأن احتكاك المركز بالشئون السياسية وكثرة الجمعيات به ، شتت تيار الدعوة فيه ، ولم يدع للأئمة الرسميين مجالا كبيرا بجانب مالرؤساء الجمعيات الأخرى .
هذا الى أن الفرق الشيعية العديدة تترك فى المركز آثارا منفرة من الاسلام ، وهم فى ظل الاحتماء السياسى ، ورغبة أئمة المسجد فى المسالمة يرتكبون كثيرا من الأخطاء . وعندما كان مدير المركز من الشيعة رأيت جماعة منهم فى أربعة أسابيع متوالية يحضرون الى المركز بعد صلاة العصر ليجروا احتفالات لهم ، ثم يخرجون قبل المغرب بقليل أو بعده بقليل ، وقد تركوا بالحجرة كثيرا من القذر وبقايا الطعام — والشيعة فرق كثيرة ، ومنهم من يرى افساد عبادة السنيين من القربى الى الله .

وأشنع ما ترك الشيعة من أثر يسىء الى الاسلام ، هو نكاح المتعة ، فقد كان بعض أئمتهم يجهر بأنه يتزوج كل ليلة ويطلق كل ليلة وكان يعزو هذا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الانجليز يتندرون بهذا .

وأذكر أنه فى ندوة من الندوات المدرسية ، التى كانت تعقد للتدريب على الخطابة واجادة اللغة ، وقفت فتاة أضحكت السامعين

جميعا من هذه الطريقة التى وصفتها بأنها اسلامية ، ولم تتح لى فرصة الرد عليها ، لأنى كنت قد أخذت دورى فى الكلام قبلها •

وبوجه عام ، هذه بعض المؤثرات التى تطبع فى ذهن الرجل الأوروبى صورا عن الاسلام ، وعن سلوك المسلمين •

وقد نقلت المؤلفة عن بعض الباحثين أن أكثرية المسلمين الساحقة من باكستان وبنجلادش والهند ، بالاضافة الى كثيرين من الأقطار العربية ، وعدد غير قليل من الأقطار الافريقية وماليزيا وأندونسيا •

كما نقلت من مقالة أخرى لبعض موظفى المركز الاسلامى نفسه أن المسلمين فى بريطانيا يعانون مشقة بسبب اختلاف البيئة اختلافا كليا عن بيئاتهم ، وأنها لا تساعدهم على القيام بشئون دينهم كما ينبغى • وهذا حق بل هو أدنى الى الايجاز والاشارة•

المسلم مثلا فى رمضان لا يشعر بأى فارق بين شهر الصوم وأى شهر آخر فالناس من حوله لا علم لهم بهذا الشهر — وينزح الكثيرون من أطراف الجزيرة البريطانية الى لندن ليشهدوا صلاة العيد ، أو ليؤدوا للمركز زكاة الفطر ، أو ليشهدوا الاحتفال بليلة القدر ، وقبل الساعة الثانية عشرة ظهرا يكون المركز قد خلا من هؤلاء ، وعند خروج أى منهم من المركز الى الشارع تنقلب الصفحة أمامه ، وتذهب مناظر العيد والعبادة — وأداة التكبير يوم العيد عمل شاق أيضا لأن المصلين لا يعرفون العربية ولا

يقدرون على النطق بصيغ التكبير المألوفة لدى المسلم العربى • وقل مثل ذلك فى الصلاة وسماع القرآن وقراءتـــه •

والمسلم فى البلاد العربية والاسلامية يستطيع أداء الصلاة فى أى مكان ، أما فى بريطانيا فلا يستطيع ، فلا مساجد ولا أماكن لأداء الصلوات • والذين يعملون فى المحال التجارية أو المكـــاتب المختلفة قلما يستطيعون أداء صلاة العصر بصفة خاصة ، فهـــم ينصرفون من أعمالهم عند الساعة الخامسة ، وقد يـــكون هـــذا الانصراف بعد المغرب بكثير • أما صلاة الجمعة فربما سافر لها الرجل من جهة بعيدة،وقد يضيع عليه بسببها وقت طعامه المحدود فضلا عما يدفعه من أجور المواصـــلات •

هذه بعض الصور مما أشار اليه الكاتب من هذه الصعوبات•

وهو يرى أيضا أنه من الممكن أن تكون هذه فرصة لنقل آراء الشرق الى الغرب ، والعمل على تقارب العادات والبيئات ، وأن المسلمين فى بريطانيا شأن جميع الاقليات فى الجهات الأخـــرى ، ينضم بعضهم الى بعض ، ويلوذ أفرادهم بجماعاتهم لأن الرجل الانجليزى منكمش قليل الاختلاط ــ واذا كان من المألوف الجارى أن تتطبـــع الأقليـــات بعـــادات الأكثرية وتتقبـــل الـــكثير من تقـــاليدها وتمتصـــه ، فان الشخص المســـلم يصـــدم بالكثير من العادات التى لا تخالف فقط تقاليد بلاده ، بل تخالف دينه ، وتفسد اسلامه •

فهناك ألوان الطعام والشراب التى لا يقرها الاسلام ، ولا تخلو منها مائدة بريطانية، وفضلا عن الكحوليات ولحم الخنزير هناك اللحوم غير المذبوحة ، والأسماك التى طبخت فى دهون غير مباحة الأكل فى الاسلام .

وتأتى بعد ذلك مشكلة الأطفال الذين قدر الكاتب أنهم حول مائة ألف طفل ، يحتاجون الى معرفة اللغة العربية ومعرفة الدين الاسلامى ، ومدارسهم بطبيعة الحال خلـــو من الامرين جميعـــا لهذا أنشئت مدارس ، واستؤجرت فصول من المدارس الانجليزية يتجه اليها التلاميذ يومى السبت والأحد لفترة من الزمن .

وهذه أيضا مشقة أخرى ــ اذ يقتضى ذلك أن يعمل التلميذ طوال الاسبوع ولا يظفر براحة أسبوعية ، بينما زملاؤه يذهبون الى مدارسهم خمسة أيام فقـــط فى كل أسبوع ــ وتنمو هـــذه المشكلة مع الطفل،لأن الفتيات وبعض الشبان من المدارس الثانوية يذهبون يوم السبت الى محال التجارة الكبيرة ، فيعملون نصف يوم ويتلقون عليه أجرا قد يساعدهم بقية الأسبوع . لهذا تكتفى بعض المدارس الاسلاميـــة بالدراسة يوم الاحـــد فقط أو مساء السبت . وهذا المجهود على ما رأيناه يعتبر أدنى الى الضياع .

وأشار الكاتب الى مشكلة أخرى أوجزها جدا .

(١١)

ذكر أن الطفلة والفتـــاة المسلمة لا تجـد فى المدرســـة الانجليزية ما يشجعها على عاداتها وتقاليدها الدينية ــ ذلك أن الاسلام لا يقر الملابس القصيرة التى تلبسها الفتاة فى ممارسة التدريب الرياضى •

هذا ، والأمر لايقف عند هذا الحد ، فهناك التعليم المختلط فى المدارس بجميع مراحلها ــ وحتى سنة ١٩٧١ ــ٧٢ • كانت هناك مدارس ثانوية خاصة بالبنات ، وأخرى خاصـــة بالبنين ؛ وكانت تختار التلاميذ المتفوقـــين من الجنسين ، ثم ألغى هـــذا النظام نهائيا ــ ثم أدخل نظام غريب هو تدريس العمليات الجنسيـــة موضحة بالتلفزيون •

ولخص الكاتب أخيرا حاجـــة المسلمين فى أمرين :

ا ــ أن تكون هناك مدارس يأمن فيها كل طفل على عقيدته ، ولا يضار فيها ، بل تقوى فى نفسه وتتثبت •

ب ــ أن ينال الطفل المسلم حظـــا أوفى من تعلمه ودرســـه للدين الاسلامى •

انـــه ليس من الانصاف أن يتلقى هـــؤلاء تعاليم دينهم من مدرس غير كامل الثقافة أو مشوه الفكرة عن الاسلام ــ كما أنه لا ينبغى أن ينتقص أى دين ، ويقول انه سمع كثيرا عن مواقف

حرجة كان التلميذ المسلم فيها يصحح لأستاذه فكرته عن الاسلام وتمنى آخرا أن يجد كتبا مكتوبة بأيدى المسلمين ، ومدرسين مسلمين يعلمون الاسلام ، وقال ان هذه قد تكون شاقة ، اذ لا يمكن وجود مدرس مسلم فى كل مدرسة ، ولكن على الأقل يجب أن يكون الكتاب أو الصور التى تعرض من عمل المسلمين •

واستدركت المؤلفة على هذا الرأى بأن الأمانة الثقافية للمسلمين (١) الآن تمد الناشئين بمدرسين مؤهلين ، يدرسون وقتا كاملا ، وأن ذلك أساس للتعليم فى مدارس الدولة ، وأن هناك مؤسسة مستقلة أنشئت حديثا تسمى المنارة (٢) وهى أسست خصيصا لعمل صور مساعدة توضيحية لفهم الدين الاسلامى ، وأنها تمد المدارس بهذه الصور لتدريس الاسلام

وليس لدينا معلومات كافية الى الآن عن هذه المؤسسة ، وهل ما تمد به المدارس يكفى لهذا الدرس أو لا يكفى • والمشكلة ليست تعريف الرجل الأوروبى بالاسلام ، ولكن تعليم أطفال المسلمين حقائق كافية عن دينهم •

وعن الأماكن التى يكثر فيها المسلمون نقلت المؤلفة أن

---

1) Muslem Education Trust.

2) The Menaret House.

المسلمين يتركزون فى الأماكن التجارية والصناعية ، وفى الموانى وأنه يوجد فى برمنجهام نحو ٠٠٠و٣٥،وفى كارديف نحو ٠٠٠و٣٠ وفى برادفورد نحو ٠٠٠و٤٠ ، وفى مانشستر نحو ٠٠٠و٢٠ — وكل هؤلاء اما مهاجرون أو من سلالة المهاجرين الذين وفــدوا على بريطانيا منذ عشرات السنين • ويوجد فى لندن وحدها نحو ٠٠٠ر٩٠ من المسلمين ، معظمهم مغتربون غير مقيمين — وقــد أنشئت لهم مساجد صغيرة تقام بها صلاة الجمعة يزيد عددهــا عن اثنى عشر مسجدا الآن •

وأخيرا جدا اهتم جماعــة من المسلمين بانشاء قرية خاصــة بهم،تجمع فيها عدد منهم وكونوا بيئة اسلامية خاصة،ومعلوماتنا عن هــذه الجماعة لا تزال قاصرة ، ولا نعرف الــكثير عن الذين أنشأوها،غير أنهم جماعة متصوفة يتبعون بعض الطرق الصوفية، ولعلهم اقتدوا بجماعــة المورمون ، الذين نزحــوا من نيويورك فكونوا قرية يوتا ، التى لا يقيم بها الآن الا المورمون وحدهم •

هذا عن الاسلام فى بريطانيا •

وهذه فكرة موجزة جدا نكتفى بها من مستشرقة تعطى صورا متنقلة عن الاسلام والمسلمين •

وبعد هذا كله لا يوجد فى أى مــكان من الأماكن التى ذكرت

أداء كامل لتعاليم الاسلام ولا لشعائره ، والذين يقومون بالدعوة فى هذه المراكز ينقصهم الكثير والــكثير جدا حتى يستطيعوا أداء هذة الرسالة • ونسأل الله أن يمد كل داعية بعونه •

* * *

وقد تسأل عن نظرة الحكومة الانجليزية والشعب الانجليزى بوجه عام الى الاسلام ، هــل هناك تسامح تام كاف ، ومساواة بين المسلم وغير المسلم ؟

ونحن نعلم والانجليز يتحدثون دائما أن بلادهم بــلاد حرة وأن لكل انسان فيها أن يسلك السلوك الذى يختاره مادام القانون يسمح به ، لكن الشعب الانجليزى ما زال يحمل فى أعماقه أفكارا بعيدة جدا عن الاسلام ، وما زال يحمل فى أعماقه ما توارثه عن اسلافه من أن الاسلام دين التــأخر ، أو أن المسلمين يعبــدون محمدا، وانتزاع هذه الافكار من نفوسهم ليس أمرا هينا • وقد ذكرت من قبــل أن أكثر مسلمى الانجليز من الذين عاشــوا فى الشرق زمنا ما ، خالطوا فيه المسلمين ، وعرفوا الاســلام ، وأن قلة قليلة جدا من الانجليز الذين خالطوا المسلمين ،عرفوا الاسلام وهم فى بلادهم ــ فهذا سر هذا الاقلال وسر صــد الناشئة عن التفكير فى حقيقة هذا الدين •

وقد مرت بى أحداث توضح هذا •

جاءنى مرة أحد الانجليز المسلمين فى وقت متأخر من الليل وطلب أن أتصل بوالده بواسطة الهاتف أو أحـــدد موعدا أقابله فيـــه •

ولم ذاك ؟ •

كان هذا الشـــاب قد عاش حينا فى عدن فعرف الاســـلام واعتنقه ، وحج بيت الله وصام رمضان ، وقام بأداء الصلوات بقدر مامكنته ظروفه ــ ولما عاد الى بلده وعلم ذووه أمره، ساءهم ذلك ، حتى انهم اتهموه بالجنون ، وسألوا الله أن يعيد له عقلـــه ودينه ، وقد صبروا على هذه الحال حتى تصادف أن جاء عيـــد الميلاد فى شهر رمضان، وفى عيد الميلاد تعد الموائد، ويقدم الديوك الرومية ، وهى طعام مقدس يرمز الى مائدة المسيح عليه السلام ــ وهى العشاء الربانى المعـــروف •

ولم يستطع الفتى أن يشارك المـــأدبة التى يعـــدها والده لأقاربهم وأصهارهم ــ أو على الأصح لم يستطع أن يعد بأنـــه سيشارك فيها ، وهو قبل هذا العام كان يشارك فى أكل اللحـــوم ولايشرب، وكان يشترط ذبح الديك أويتولاه بنفسه• فلما كان هذا العام أخبر بأنه لن يشارك فيه • وهنا قامت قائمة البيت ، وعـــم الحزن الجميع ، وتأكدوا جنون الفتى • ولم يكن واحد منهم على

استعداد لأن يسمع شرحا عن الاسلام ولـم يستطع الفتى أن يقنعهم به .

كانت الحجة الكبرى التى اعتمد عليها الوالد ، هى أن الشعوب الاسلامية كلها شعوب متأخرة ، وأنه لا ينبغى لابنه أن ينتسب اليهم ، وأن المسلمين قساة يذبحون الحيوانات ، ولئن احتمل ذبح الطيور انه لا ينبغى أن تذبـح الأبقار ، وأنهم يحرمـون لحم الخنزير لأن محمدا صلى الله عليـه وسلم تقزز منه ، وأنهـم يضيقون على المرأة، ويلزمونها الحجاب ، ويمنعونها من التعليم، وأنهم يبيحون للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة . . . الخ .

وقد ظل الرجل وزوجه يوجهان لا بنهما قارس اللوم وقاسى عبارات التأنيب ، حتى اضطر أن يدع البيت ليلا ليحضر الى .

ولم أقابل أيا من أفراد الأسرة ، ولكن طلبت اليه أن يبلـغ أبويه أن الاسلام يحتم احترام الوالدين ، حتى ولو أساءا اليه وأنه لهذا لا يستطيع رد هـذه الاساءة ، ولا الدفاع عن نفسه خوفا من أن تفلت منه كلمة قاسية أو نابية تعتبر مخالفة للاسلام أما دينه فانه مقتنع به ولن يتخلى عنـه .

وبهذا أمسكوا عن تأنيبـه .

وأعتقد أن والده ظل يحمل لى كراهيـة .

وقد ذكر لى غير مرة أن والده يريد مقابلتى ، ولكن لم أقابله ودعانى مرة على لسان والده أن أزور الأسرة فى بيتها ، فاتفقنا على أن نحدد موعدا لهذه الزيارة ، ولكن هذا لم يتم .

وعندما هممت بالسفر ، دعانى الشاب الى زيارتهم فى بيتهم ، وقال ان والده وبعض ذويه يريدون مقابلتى ، وأنه قد يكون هناك من يسألنى عن الاسلام أو يناقشنى فى مسائل منه ، ولم يتم هذا أيضا .

هذا حديث واحد من مسلمى الانجليز .

* * *

وكان لى صديق آخر عزيز جدا على والديه ، ولم يكن لهما ولد غيره وأخت أخرى ، وكنا نتبادل الزيارة ، وكانت الأسرة كلها تحضر الى بيتى ، وكانوا يسرون جدا بذهابى اليهم خارج لندن. وأخبرنى الشاب أنه يفكر منذ زمن طويل فى اعتناق الاسلام ، ولا يريد أن يمر به رمضان ذلك العام الا وهو مسلم وصائم . ولم يكن يتوقع معارضة من أبيه ، لأن أباه غير مؤمن بأى دين ، ولكنه توقع معارضة والدته ، لأنها كاثوليكية تتمسك بكاثوليكيتها، ثم أسلم واغتسل وصلى .

وفى أول ليلة من رمضان تجرأ وأخبر والدته لتعد له سحوره.

لم تغضب الوالدة ولم تثر ، بل قالت انها كانت تتوقع ذلك من زمن بعيد ، بسبب صحبته لى — وأعدت له سحوره .

وانقطعت زيارة الأسرة لنـــا .

وذهبت لزيارتهم ، فلم أقابل بالوجوه التى قوبلت بها من قبل وانقطعت زيارتى أيضـــا .

وليس من شك فى أن السيدة الوالدة لم تكن تستريح لى لأننى تسببت فى افساد ولدها العزيز عليها .

أما الوالد — العلمانى — فكثيرا ما أنب ولده ، وكثيرا ما طلب أن يتخلى عن هذا الدين ، وواضح أن ذلك لا يرجع لعدم اقتناعه بالأديان ، فزوجه كاثوليكية ، وبنته مسيحية أيضا ؛ ولــكن هذا الامتعاض يرجع الى نظرته الى الاسلام والمسلمين .

وهذا الشاب كان ولايزال يعمل فى القسم الشرقى من المتحف البريطانى ، ورئيس هـــذا القسم هو الدكتـــور لنجس — الذى اعتنق الاسلام منـــذ أول الأربعينيات ، وتسمى بـــين المسلمين بأبى بكر سراج الدين ، وله نشاط اسلامى لا بأس به ، وهو من المتصوفة العباد . وقد اقتدى الشاب به فتسمى باسم عمر — وأعلن اسلامه بين رفاقـــه .

وقابلنى الدكتور لنجس ، فأخبرنى أنه ما كان ينبغى لهـــذا الشاب أن يعلن اسلامه ، وأن هذا الاعلان سوف يسبب مضايقات

فى وظيفته ، وأنه هو نفســـه أوذى لهذا ، وأن بعض أســـاتذة الجامعة حيل بينهم وبين الترقية لأنهم مسلمـــون • وأن المسلم الأصلى الشرقى قد يحتمـــل ، أما الانجليزى الذى يتحول الى الاسلام بعد مسيحيته فانه يثقل على الرؤساء جدا ويتعرض لكثير من المضايقـــات •

***

ذكرت هذين الحادثين لنرى نظرة الانجليز حـــكومة وشعبا الى الاســـلام •

وبهذا نرى أن تأخر بناء المركز الاسلامى ، أو على الأصح تأخر الاذن بانشائه يرجع الى هـــذه النظرة ، والى ما يعتقـــده الانجليز فى الاسلام .

وهناك غـــير هذا كثير • • • •

عقبات فى طريق الاسلام

أستطرد هنا فأسجل هذه الملاحظات التى تبين موقف الأوروبيين من الاسلام ، وبعض العقبات التى تحول دون انتشاره وفهمه ، وهى فى الواقع عقبات كثيرة ، منها مايرجع الى الغربيين ، ومنها ما يرجع الى المسلمين .

وأول هذه الأسباب كما لمسته ، هو حال الشرقيين أنفسهم ، ومايسود البلاد الاسلامية من مظاهر خلقية وسياسية واجتماعية ففى كل هذه البلاد تشيع عادات وأخلاق لا يقرها الاسلام ، ولا تقبلها أمم الغرب الراقية ــ الأكاذيب وخلف المواعيد ، والتهاون فى أداء الواجبات ، ثم شيوع الرشوة والمحسوبية ، والمماكسات فى البيع والشراء ، ثم تأخر المجتمعات وقلة الثقافة بينها ، بل شيوع الجهل والأمية حتى المدارس والجامعات هى أيضا متأخرة جدا الى جانب المدارس والجامعات الأوروبية ، ومن ثم فالرجل المثقف أو المتعلم الشرقى أقل كثيرا من نظيره الأوروبى فى اطلاعه وفى عمق درسه ، فضلا عن قلة هذا المثقف فى مجتمعه الشرقى وكثرته هناك .

ولعلى لست بحاجة أن أذكر أن الغرب هو المسئول عن سوء حال الشرقيين .

لقد رزحنا فترة طويلة تحت نير الاستعمار الغربى فأشاع بيننا أكثر هذه الصفات، فضلا عن أنه بث فينا بذور التفرقة وعدم

الاتحاد ، فلما تخلصنا من هذه السيادة لم نجـد لدينا الـكفاية والقدرة على بناء مجتمعاتنا ، واللحاق بركب الحضارة الأوروبى، لقد قطعت أوروبا زمنا طويلا فى تكوين شعوبها علميا واجتماعيا فلما تـكونت ونضجت قضت وقتا آخر وهى تحول بيننا وبـين التقدم والنهوض ، فكنا نمشى الى الوراء وهم يحثون الخطى الى الامام ، وبذا اتسعت المسافة بيننا وبينهم ، ونحن بهذا نسجـل اعترافنا بتأخرنا وتقدمهم • ولا نمارى فيه ، لكن الذى لانقبله، ولا نجد دليلا عليه ، هو أن يعزى ذلك الى الاسلام ، فالاسلام لا يقرر أية صفة من هذه الصفات التى ينفرون منها •

اننا خلال هـذه الفترة التى استتمنا فيها بعدنا كثـيرا عن الاخلاق الاسلامية ، بل ان بعدنا مبدئيا عن أخلاق الاسلام هو الذى دعا الى تأخرنا واستنامتنا ، ثم عمل الاستعمار بدوره على قتل روح الاسلام فينا ، وحال بطرق مباشرة وغير مباشرة، بيننا وبين الثقافة الاسلامية ، ومن هنا شاعت بيننـا ، الصفات التى نهى عنها الاسـلام ، وقامت بيننا جاهليـة لا تختلف كثيرا عن الجاهلية الأولى •

واذن فنحن والغرب سبب هـذا الفساد • فـلا معنى اذن لاتهام الاسلام •

ولكن الذى حدث أن الغربيين لم يلتفتوا الى مزايا الاسلام، والتفتوا فقط الى تأخر المسلمين ، واعتبروا هذا التأخر نتيجـة من نتائج الاسلام ، أو على الأصح احدى جناياته على الشعوب

التى اعتنقته ، وقد تجسمت هذه الأفكار فى أذهان الغربيين ، حتى اتهموا من يدخل الاسلام مدخولا فى عقله،مختل التوازن العقلى .

واذكر هنا غير ما ذكــرت من الأمثلة أن أحد الجامعيين من هولاندا كان يدرس الأدب الهولاندى فى أندونيسيا ، حين كانت هولاندا تستعمر جزءا كبيرا منها ، وهناك تعرف على الاســـلام فأسلم ، وقد ارتاعت زوجته لاسلامه وكتبت الى ذويه فى هولاندا فلما عاد الى هناك ليقضى اجازته قوبل بوجوم واستنكار ، ووجد تيارا شديدا ضده واشاعة واسعة أنه قد خولط فى عقله وناله شىء من الجنـــون ، حتى أولاده الـــكبار عاملوه بكثـــير من الحـــذر والارتيـــاب (١)

وبعد الاطمئنان الى صحة عقله أو قلة اختلاله، جادلوه طويلا فيما فعل ، وكان من حججهم أن الدول الاســـــلامية كلها دول متأخرة أو مستعمرات .

* * *

ومن الأسباب التى تنفر الغرب من الاسلام ما يكتبه عنـــه المستشرقون فهؤلاء لا يكتبون شيئا يجلو محاسن الاسلام ، بل يجهدون أنفسهم فى البحث عن عيوبه ، فان لم يجدوا جادوا عليه

(١) هذا الرجل هو الدكتور « مليما Millima » الذى حضر المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر سنة ١٩٦٤ ، وقد قص على قصص اســـلامه وموقف ذويه منه ، وهو قصص طويل اضحكنـــا كثـــيرا .

بالنقائص والمفتريات، والغربيون بحكم جهلهم بالعربية لايقرأون عن الاسلام الا ما يكتبه المستشرقون •

وقد عمل الاستعمار بدوره على تشويه الاسلام ، بقدر ماعمل على اضعافه فى نفوس المسلمين ، ذلك الروح الاسلامى كان يذكى فى المسلمين روح المقاومة ، ويدفعهم الى حرب المستعمرين ، ايمانا بقول القرآن «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» (١)

ومما اتخذه الاستعمار وسيلة لذلك تشجيع الحركة التبشيرية وامداد المبشرين بالكثير من المال ، وتهيئة الجو لدعواتهم باسم الحرية الدينية، فكان التوسع وتسهيل الطريق لهم يقابل التضييق والحط من دعاة الاسلام •

وهناك أيضا الروح الصليبى الذى لم يهدأ بعد ، ويعاونه العداء الصهيونى الذى يشبه موقفه موقف المستعمرين ، فالصهيونيون خططوا لحرب فلسطين منذ زمن بعيد ، وكان الاسلام — دون المسيحية — هو الذى يصد ويقف فى سبيلهم ، وقد هم اليهود كما هم المستعمرون أن يشوهوا الاسلام وينفروا منه •

وغداة أخرج المستشرق الانجليزى « جب » كتابه المحمدية «Mohemadauesm» وهو كتاب لا ينصف الاسلام ولاينصف النبى محمدا صلى الله عليه وسلم ولكن نظرته الى هذه

(١) سورة النساء الآية ١٤١

الرسالة لا تخلــو من شيء من الاحترام ، ارتاعت له الدوائــر اليهودية ثم عهدت الى « الفريد جيوم »فألف كتابه الاســلام «Islam» ونشرته له مؤسسة بنجوين Penguin وهى دار نشر كبيرة وشهيرة ، وقد طبعته له مرتين ، وترجم الى غير الانجليزية •

وفى هذا الكتاب لا يكتفى جيوم باتهام محمد أنه استقى هذا الدين من اليهود ومن النصارى ، بــل يتهمه أيضا بظلم اليهود والقسوة عليهم ، ويرى أنه بعد أن استفاد منهم ناصبهم العداء لأدهى الأسباب أو لغير ما سبب ، ويذكر أن دس امرأة يهودية السم للنبى وأصحابه لم يكن مبررا للعقوبة التى ترتبت عليــه ، وقد كانت المرأة موتورة لقتل النبى ذويها فى موقعة خيبر (١) •

ويغضى جيوم نهائيا عن الفارق بين القتل فى الحروب والقتل من المواطنين خيانة وغــدرا •

وصورة هذا الحادث أن زينب بنت الحارث وزوج سلام بن مشكم بعد صلح خيبر ــ دعت النبى وبعض صحبه الى وليمــة قدمت لهم فيها شاة ، وكانت تعلم أن النبى يحب ذراع الشياه ، فأكثرت فى ذراع شاتها من السم ، ودسته فى سائر أجزائها ، وقد لاك النبى شيئا من الشاة ولم يسغه ، بينما أكل أحد أصحابه منها فمــات •

---

1) See Islam P. 39

والموقف اذن ليس موقف حرب مشروعة أو معلنة ، ولـكنه تدبير خفى ، وأفراد اليهود اذن كجماعاتهم لا يؤمن جـوارهم المسلمين ، وقد اعترفت زينب بكل ما فعلت • وتختلف روايات المسلمين ازاء عقوبتها ، فيقول بعضها ان النبى عفا عنها ، ويقول بعضها انها قتلت ، وقتلها لا شىء فيه لأنها قتلت رجلا مسلمـا بغير حق •

ويقول جيوم انه ربما كانت هـذه الشاة المسمومة هى التى سببت موت النبى •

ولعل هذا وحده – فضلا عن الخيانة –كان كافيا لقتل زينب•

ويقول جلوب باشا Gloub القائد الانجليزى الذى كان يحمى الحدود الأردنية ــ ان محمدا لم يعان من هذا السم الذى دسته له اليهودية ، ولم يكن سببا فى موته ، وهو قد مات بنزلة شعبية وحمى ، ولكن أصحابه أرادوا أن يضفوا عليه صفة الشهيد فأشاعوا أنه مات متأثرا بهذا السم •

فأنت ترى تعاونا من الصهيونية ، وأنصار الاستعمار ، على تشويه الاسلام وتحريف أحداثه التاريخية ، وكذلك يفعـلون •

وأذكر بعد هذا ــ وليس ذلك آخر ما يقال • أن عدم معرفة اللغة العربية حتى من كبار المستشرقين –من الأسباب التى تحول دون فهم الاسلام والوقوف على حقائقه • حتى الذين ترجموا القرآن الكريم لم تخل ترجماتهم من هفوات وأخطاء • ويكفى أن نلقى

نظرة على ترجمة آربرى لنرى مدى ما يشيع فيها من أخطاء وقد كتب هو فى مقدمته أن المترجمين الآخرين أخطأوا كثيرا بسبب عدم اجادتهم فهم لغة القرآن — وتقارض الثناء هو والدكتور بل Bell — ومع هذا لم تخل هذه ولا تلك من الأخطاء الجسام .

وكتب كارليل فى كتابه «البطولة وعبادة الأبطال» أن القرآن أسلوب سقيم ممل . وأنه لولا ما يمليه الواجب العلمى على القارىء الأوروبى من قراءة هذا الكتاب ما وجد أحد صبرا على قراءته لما فيه من تكرار ممل وسوء أسلوب .

ولنا أن نعود باللائمة على العرب أنفسهم .

لم تفكر الى الآن دولة عربية واحدة فى انشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية فى البلاد الأوروبية . ولم يكن فى مدينة لندن — حتى مغادرتى اياها سنة ١٩٧٢ مدرسة تعلم اللغة العربية عدا كلية كمبردج وعدا مدرسة ليلية خصصت درسا واحدا لها كل اسبوع .

ومن عجب أن اللغات المختلفة لها مدارسها فى البلاد الأوروبية ، وتدرس فى المدارس الليلية حتى اللغات الأفريقية مثل الهاوسا والروبا وغيرهما .

وأنشىء للغة العبرانية ـــ وكانت احـــدى اللغات الميتـــة ـــ مدارس ، واتخذت لها مكانا فى المدارس الليلية وكتبت بها لافتات المحلات التجارية بجانب اللافتات التى تـــكتب باللغات المحلية ليكون فى ذلك نوع من تعلمها ، وقد ألف الناس حروفها فأصبحت أدنى الى الحياة •

وقد كانت العربية ـــ وهى لغة حية ولها متـــكلمون كثر ـــ أولى بهذا •

فهذا سبب آخر يزيد فى جهل الأوروبيين بالاسلام ، ويطلق العنان للطاعنين فيخبطون فى مسائله خبط العشواء على غير بصيرة ـــ فيضلون ويضلون •

فهذا طرف مما يوضح موقف العربيـــة من الاســـلام •

الاسلام فى الدول الأوروبية الأخرى

لم تعقد مؤلفة العقل المسلم فصلا بهذا العنوان ، ولكن جاء هذا الحديث عرضا فى كلامها •

وقبل أن أعرض لما كتبت أذكر هذين الأمرين :

أولا : أن نظرة الأوروبيين الى الاسلام هى نظرة الانجليز اليه ، وقد تستثنى من ذلك الدول التى عرفت الاسلام من قبل اذ نجد بينها من تشتد كراهيته للاسلام ــ ففى دول البلقان وتركيا واليونان والمجر ويوغوسلافيا •• مسلمون جاءوا من سلالات اسلامية كانت بهذه البلاد ، وهؤلاء المسلمون يسمح لهم أن يمارسوا شعائر الدين الاسلامى الى حد ما ، وقد انحطت أفكارهم الاسلامية واضمحلت معلوماتهم عن الاسلام لقلة الكتب وندرة المعلمين ــ والذين يعيشون فى بلاد شيوعية عانوا كثيرا من التضييق فيما سبق ، ولكنهم الآن يسمح لهم ببعض ما لم يكن يسمح به من قبل ، نظرا للظروف السياسية العامة ، وخشية القالة والسمعة السيئة عن هذه البلاد •

وأكثر هؤلاء المسلمين فلاحون يعملون فى الحقول ، وحياتهم غاية فى الفاقة وفى التأخر،حتى لا يكادون يحسبون من الأوروبيين وقد رأيت جماعة منهم بالقاهرة ــ كانوا ذاهبين للحج ــ نزلوا فى خان الخليلى فاشتروا الطرابيش القديمة بعضها مقطوع الزر وبعضها مثنى الجوانب ــ ثم جاء الى الفندق ــ وكان به مصعد

ــ فادهشهم منظره وظلوا يتأملونه ويعجبون • وعرفت أنهم من اقليم الهــرسك •

ويوجد فى شمال اليونان جماعة من المسلمين هم فلاحــون أيضا وحالهم لا تــكاد تفترق عن حال هــؤلاء الذين جاءوا من الهــرسك •

ولعل المسلمين فى تركيا العلمانية أرقى المسلمين الأوروبيين، وفى تركيــا تقام الصلوات وتخطب الجمعة باللغــة العربية من دواوين قديمة لا يفهمها الخطيب ولا السامعون ، ويوجد قــراء يحفظون شيئا من القرآن لا يفهمونه هم ولا الذين لقنوهم اياه ونظرا لأن اللغة التركية كانت تكتب بالحروف العربية لا يزال فى تركيا من يستطيعون القراءة فى المصاحف وان كانوا لا يفهمون ما يقــرأون •

ومعروف أن مصطفى كمال كان قد حول كثيرا من المساجــد الى مصانع أو متاحف ، وأن مكاتب الآستانة الكبيرة التى كانت مرجعا للباحثين فى شتى انحاء العالم ضــم بعضها الى بعض ، وبقيت مخازن للكتب ، والرجل التركى الآن لا يكاد يظفــر منها بفائدة ذات قيمة ، وهناك مساجد كثيرة هجرت •

وقد زرت أثينا مرة فسألت عن مسجد بها فأرونى مسجدا عتيقا مغلقا وقالوا انه متحف قلما يفتح ، كما حدثنا الدليل عمــا يحمله الرجل اليونانى فى نفسه من كراهية وبغض للعهد التركى،

وأنه كان عهد جدب فكرى ومادى واجتماعى — ونحن نعلم أن العهد التركى كان حقا عهدا مظلما فى مصر ، وأن الحالة الثقافية والفكرية كانت غاية فى الضعف والانحطاط ، بل ان التاريخ الاسلامى منذ زمن بعيد يحفظ لهذا الجيش التركى أثرا سيئا كبيرا ، واليه يعزى كثير مما أصاب المسلمين — غير أن الأتراك العثمانيين على أى حال أكسبوا بلاد الشرق الأوسط نوعا من الوحدة ، ونقلوا الاسلام الى البلاد التركية التى فتحوها ، ولو أن حكومتهم كانت ذات عدالة واتجاهات ثقافية ، لكان أثرها فى تثبيت الاسلام أقوى وأجدى ، ولكنها فى جملتها لم تكن حكومة اسلامية ، ومع ذلك نقلت الاسلام الى هذه البلاد ، ونقلت اليها أسرا مسلمة لا تزال بقاياها الى الآن ولكنها على الحال التى وصفنا .

وخلاصة ما فى هذا الأمر أن فى كل بلد أو قطر من هذه البلاد بعضا من المسلمين،ولكنهم مسلمون بالاسم والوراثة،ومعلوماتهم عن الاسلام تلقوها عن آبائهم،وعن معلمين أشبه بمعلمى الكتاتيب فى مصر فى القرن الماضى ، والحكومات لا تمدهم بأى مدد فكرى عن الاسلام ، وقد تكون مشكورة اذا لم تضيق عليهم فى قيامهم بشعائر دينهم ، ولكنهم على أى حال كالماء الراكد الذى تمتص التربة منه قليلا قليلا ، ويتناقص تبعا لذلك ويأسن . ونحمد الله أن لم يزل الاسلام يحتفظ بشىء من الحياة ، ولم تزل فى جذوته

شيءمن الحرارة والاشعاع • وعلينا أن نتدارك هذه الجذوة قبل أن يطمسها الرمـاد •

هذا هو الأمر الأول •

والأمر الثانى هـو أن هناك حياة جديـدة بدأت تنبعث فى مسلمى هذه البلاد ، وأن تيارا جديدا عن الفكر الاسلامى بـدأ يتمشى فى الأقطار الأوروبية — ويرجع ذلك الى ما ذكرت من قبل من أن جوانب العالم تقاربت ، وأن هجرة الشرقيين الى الغرب أصبحت أكثر نشاطا ، لذلك وجدت كتب — وان كان قليلة جدا — من عمل المسلمين ، ووجد حديث أدنى الى الصحة عن الاسلام •

ونظرا لأن هذه الحركة فى بدايتها لم توجد لها الى الآن كتب كبيرة تشرح حقائق الاسلام وتوضح أغراضه ومقاصده ، وأكثر الكتب التى ظهرت عن الاسلام هى كتيبات لتعليم الصلاة والزكاة والصوم ونحو ذلك ، والى الآن لم يقم أى من المراكز الاسلامية أو المساجد برسالته ويرجع ذلك الى أسباب كثـيرة لست بصدد سردها ، ولكننا ازاء هذا الفجر الذى تنفس نشعـر بشىء من التفاؤل ، كما ندرك ثقل المسئولية الملقاة على عواتقنـا •

ومن المراكز التى أنشئت حديثا مركز فىفينا،ولعله أن يستطيع النهوض بمهمته لأن المشرف عليه أحد خريجى أصول الدين •

وكان فى باريس مسجد واحد أنشىء من زمن بعيد ، وجددته الحكومة الفرنسية على حسـابها منذ سنوات ، ولكن تيـارات

السياسة لعبت به كثيرا ، ولا يكاد يؤدى رسالة تذكر ، ثم أنشىء مسجد آخر بباريس أيضا ــ ثم أنشئت مساجد صغيرة فى قرى فرنســـا •

وفى المجر جالية اســلامية وبها بضعـــة أفراد ، تعلموا فى الجامعات الاسلامية بمصر والمملكة السعودية ، ولكن نشـــاطهم فى ظل الحكم الشيوعى ضئيل محدود • ويوجد بعض مثلهم فى يوغوسلافيـــا •

أما اسبانيا فقد استجابت منذ عام وسمحت للمسلمين باقامة شعائرهم الدينية وربما صلى بعضهم فى مسجد قرطبة العريق ، وهناك مركز اسلامى مصرى تلقى فيه محاضرات عن الاسلام •

وتذكر صاحبة العقـــل المسلم أنه فى شهر يونية سنة ١٩٧٤ وافق البرلمان البلجيكى على اعتبار الاسلام أحد الأديان الرسمية على مستوى المسيحية واليهودية ــ وقالت ان هـــذا يؤذن بأن الحكومة البلجيكية ستبنى مساجدوتتحمل مرتبات المعلمين الذين يعلمون فيها ــ وأن النمسا فعلت ما يشبه ذلك •

وليس يعنينا بعد هذا كله ما تكنه هذه الحكومات للاســـلام من حب أو كراهية ، وحسبنا أن المسلمين يجدون مجالا لنشاطهم هنـــاك •

وهناك أقطار ليس بها أى أثر من آثار الاسلام •

وهناك أقطار تعادى الأديان جميعـــا •

وأذكر أن المستشار التجارى لأحدى الدول الشيوعية كـان يزورنى ، وكانت بيننا صلة سببها وجود ابنتينا فى مدرسة واحدة، وقد سألته مرة عن وجود مساجد أو كنائس فى بلده ، فقال انهم لم يعودوا يسمحون بوجود الخرافات أصلا فى بلادهم — وكان يتحدث عن هذه الأعمال بكثير من الزهو والفخار — فلما جادلته فى الأدلة التى تقنعنى بوجود اله أبدع هذا الـكون ، وذكرته بوظيفتى كامام للمسلمين قال انه يمكن أن تكون هناك وظيفـة لارضاء عواطف الناس ولكن لا ينبغى أن نصدق كل ما يقال •

وقلت له : ما الذى تجنى مصر من ارضاء عواطف الأغرار فى انجلترا ؟

فأبدى دهشة لأنه كان يحسبنى أحصل من المصلين على هبات على نحو ما يفعل رؤساء الكنائس •

وكانت هـذه آخر زيارة منه • وكانت ابنتـه اذا رغبت فى زيارتنا أحضرها الى قريب من منزلى وحدد الموعد الذى يعـود فيه والمكان الذى تنتظره فيـه •

وفهمت أنه ربأ بنفسه أن يزور مغفلا يؤمن بوجود اللـه ، وكان أول الأمر يعتقـد فى نصابا أستغل عواطف الناس وأبتزأ أموالهم بالخـديعة •

ومعنى هذا أنه يقبل مجالسة الخداع الذى يحصل على المال

من طريــق النصب ولا يقبل مجالسة المخدوع الذى يعتقــد أن للــكون خالقا •

هذه صورة ضيقة مصغرة عن الاسلام فى بلاد أوروبا • وقد تحدثنا فى غير هذا الــكتاب عن الاسلام فى روسيــا •

* * *

والذى يجب أن أذكره هو أن كــل هذه المراكز الاســلامية والمساجد حديثها وقديمها ، تتجه الى مجمع البحوث الاسلامية، والى الأزهر جامعة وجامعا • ومجمع البحوث والأزهر فى حاجة الى امكانيات تؤهل للاضطلاع بهذه الأعباء الثقال •

نحن بحاجــة الى مبعوثين الى مختلف البــلاد الأوروبية ليتعلموا لغاتها وليستطيعوا أن يشرحوا لأهليها حقائق الاسلام ويدفعوا هجوم الهاجمين عليه •

ونحــن بحاجــة الى دراسات واسعــة عن الاســتشراق والمستشرقين •

ونحن بحاجة الى دراسات أيضا فى مقابلات الأديان وأسسها حتى يمكن أن نبين ميزات الاسلام وفضائــله •

ونحن بحاجة الى العديد من الكتب والنشرات تكتب باللغات العديدة أيضــا •

كل هذا والمال يقتر على المجمع تقتيرا ، ولا تــؤدى رسالة بغير مال •

وكل هذا والأموال تنفق على ما يستحق ومالا يستحق •

وليت قومى يعلمون أن مسجدا واحدا وأن أماما واحدا فى أى بلد يعمل لمصر مالا تعمله سفارة كبيرة تنفق الآلاف •

وليتهم يعلمون أن الأزهر هو مرآة هذا القطر ، وأنه بسببه تتجه الى مصر ملايين القلوب فى مختلف القارات •

وليتهم يعلمون أن الأعباء الملقاة على عاتق الأزهر ومجمع البحوث أكبر مما يظنون ، وأن توالى تقصيره فيها سيلفت الناس عن مصر ، وقد نشأت الآن مصادر أخرى غير الأزهر لدرس الاسلام •

ولكن المال يبذل فى كل شىء رخيصا يضن به على الأزهر •

تباركت أنهار البلاد سوائح بعذب وخصت بالملوحة زمزم

* * *

وأعود فأذكر أن مسجدا حديثا بصدد الانشاء فى البرتغال والبرتغال كانت مثل أسبانيا فى تشددها وحرصها على الكاثوليكية وحدها ، ثم اتخذت احدى السفارات جزءا منها مسجدا تقام فيه الصلوات الآن ويؤمه عدد كبير من المصلين ، وبه مدرسة متواضعة لتعليم اللغة العربية ، ونأمل اذا نهض المسجد الذى تبرعت له الحكومة البرتغالية بالأرض التى يبنى عليها أن يكون به مركز اسلامى يمكن أن يبث ثقافة اسلامية مجدية •

وأذكر أخيرا هذا المسجد الذى أقامه فى ميلانو أحـــد أبناء نيجيريا ، وقـــد أقامه فى دار الشركـــة التى يديرها ، ولم يجرؤ بعد على اعلانه مسجدا رسميا ، ولكن لا يمنع أحد موظفى الشركة المسلمين من أداء صلواتهم .

ونأمل أن يستقر فى روما مسجد ومركز اسلامى على نحـــو المراكز الأخرى المتسامحـــة .

هذه صورة خاطفة عن حال الاسلام فى الأقطار الأوروبية . وكما تقول السيدة ــ وادى ــ ينبث الاسلام ويوجد مسلمون فى كل أنحاء العالم . ولكن المشكلة هى نقص الثقافة وخفوت الروح وقابلية الفـــكرة للتشويه ــ وهذا منفذ واسع للأعـــداء الذين يهدفون الى تشويه الاسلام وتحريفـــه .

الاســلام فى يوغوسلافيا

نخص الاســلام والمسلمين فى يوغوسلافيا بحديث منفرد •

ويوغوسلافيا، كما هو معروف احدى الدول الشيوعية التى لا تعترف بأى دين — ولـكن كما ذكرت — أصبحت الأوضـاع السياسية تقضى على الدول الشيوعية جميعا أن تتهاون فى تشددها ازاء الدين ، وأصبحت هذه الدول تتظاهر بأنها لا تعارض حرية الأديان وان كانت هى نفسها حكومة لا دينية •

وقـد تحدثت عن الـدين فى روسيا فى كتاب « الشيوعيـة والشيوعيون » وأزيد هنا أنه توجد أربع ادارات دينية فى البلاد التركستانية التى يحكمها الاتحاد السوفيتى — وأنها تكافح رغم التضييق ورغم وضـع العراقيل فى سبيلهـا •

أما يوغوسلافيا فتتكون من ست امارات كما هو معروف — والعاصمة العامة هى بلغراد ، وبلغراد بلد كبير ، كانت منذ فتحها الأتراك سنة ١٥٢١ م تتسم بطابع اسلامى وبنى مسجدها الكبير بعد فتحها بعام واحـد ، ثم زاد عدد المساجـد بها حتى بلـغ نحو ٣٠٠ مسجد ، والمسجد الكبير جزء من قلعة بناها العثمانيون وكان بجانبها كنيسة من قبل فتركهـا المسلمون كما هى — وهى باقيـة للآن •

وعندما تقهقر المسلمون هدم المسيحيون بعض المساجـد ، وعندمـا جاءت الثـورة الشيوعية هدمت المساجـد جميعـا ،

أو حولتها الى مصانع • عدا هذا المسجد والكنيسة التى بجانبه ، أما الكنيسة فبقيت كما هى ، وأما المسجد فقد تهدم وبقى منه جزء صغير ، كما بقيت مقبرة للمسلمين كانت بجانبه ، وأما القلعة فهدمت أيضا ، وحول جزء منها الى متحف حربى — ويسمى المسجد مسجد البيرق — أى العلم — ولعل تلك التسمية جاءت من وضع المسجد واضحا فوق القلعة كالعلم ، أو لأنه كان هناك علم فوق القلعة فى هذا المكان •

والمسجد لم يظل مسجدا منذ جلا المسلمون عن المدينة بل هجر حينا واستولت عليه ادارة الآثار حينا آخر — وفى العصر الحديث جاهد مفتى فلسطين فاسترده من الكنيسة وأقام فيه الصلوات على ألا يغير شيئا مما به لأنه من الآثار •

وجاء فى بعض التقارير أن عدد سكان بلغراد سنة ١٦٠٠ م نحو مائة ألف نسمة ، وأن ثلاثة أرباعهم مسلمون ، وأن بها اذ ذاك ١٧ تكية تنفق فيها أسواق البر والصدقات ، وبها ٢٧٠ كتابا لتعليم القرآن ، وتسع دور لتعليم الحديث وقواعد الدين الاسلامى ، وثمانى مدارس ثانوية •

وقد هدم المسيحيون ذلك كله وحولوا بعض المساجد الى كنائس أو الى مصانع — وبعضها أزيل نهائيا وأنشىء مكانه ملاعب ومسارح ، ولم يبقى أخيرا الا مسجد البيرق الحالى ،وهو جزء صغير من أصل كبير • ومما يضطر حكومة البلاد الى الابقاء

عليه وجود عدد من العرب الذين يدرسون هناك وهم يريـــدون أداء صلواتهم الى جانب اخوانهم المسلمين الوطنيين — ومع أن الشيوعية تدرس فى معاهد يوغوسلافيا وجامعاتها بقى هناك عدد كبير جدا لم تنطفىء جذوة الاسلام فى قلوبهم ٠

والحق أن لأبناء المسلمـــين فى يوغوسلافيا جهاد مشـــكور يستحق التقدير ، وقد استطاعوا أخيرا انشاء كليـــة اسلامية فى مدينة « بسراجيفو »وهناك وزير للأديان هو الآن من المسلمين وكان الوزير السابق عليه من المسيحيين ٠ ولا يزال كفاح المسلمين مستمرا هناك رغم كثرة التيارات الفـــكرية والفلسفية ، ورغم نشاط الدعوة الالحادية المـــاركسية ٠

وفى البوسنة والهرسك عدد كبـــير من المسلمين وأكثرهـــم فلاحـــون وعمال ، وحالتهم المعيشية غايـــة فى التأخر العلمـــى والاجتماعى ، ولكنهم على أى حال مسلمـــون ٠

وفى المدن اليوغوسلافية الأخرى مساجد ، وبها مطلعون على الاسلام ومتفقهون فيه ، ولكل اقليم مفتيه — والمفتى هو الذى يعرف الاسلام ويرشد الناس ويعرفهم ما هو حلال وما هو حرام

وهناك أئمة مساجد لا يعرفون حرفا واحدا فى اللغة العربية،

ومن المعلومات عن يوغوسلافيـــا أن بها عددا من الأجناس

واللغات حتى أنها تستعمل خمسة عشر لسانا ، ولـكن تجمعها كلها أربعة أنواع من الخطوط الكتابية ، وبها من المسيحية فقط الأرثوذوكسية والـكاثوليكية ، والأغلبية كانت للاسـلام حتى غلبت موجة الالحاد مع الثورة الشيوعية •

وبوجه عام تنفس المسلمون الصعداء فى الأيام الأخيرة وظفروا بشىء من الحرية وان لم تكن حرية كاملة •

والآمال الآن معقودة على المركز الاسلامى الجديد •

مستقبل الاسـلام

شمل هذا الباب مقدمة وخمسة فصول مع ملحق ضافكبير ٠ وجاء فى المقدمة أن المستقبل الذى يواجهه المسلمون وهـم خمس العالم البشرى تقريبا ، لا يـكاد يختلف عن مستقبل أى جماعة أو طائفة أخرى ، فان أشباح الخوف من الجوع والتدمير التى تنتج عن التوسع وشن الحروب لا تعرف لها حدا تنتهى اليه ولا تطمئن ازاءها نفس ٠ وكذلك الأحـلام البهيجة من الوفرة والعدل العالميين لها مكانها فى الأذهان ٠

ولذلك هناك أصوات كثيرة تسمع عبر العالم الاسـلامى — كما توجد فى العوالم الأخرى ٠ مخافة واطمئنان ، يأس وأمل ، تفاؤل وتشاؤم ، وهـكذا ٠ ٠ ٠

وهنـاك بعض اجتذبتهم التيارات الجديـدة التى تسود المجتمعات الصناعية ، بينما وقف آخرون عند التقاليد القديمة٠ ومن هنا نتج توتر داخلى بين هذين الجانبين ٠ ولكن يشاهـد أيضا ما هو رد على التحديات التى تـكمن وتبدو بوضوح ازاء المستقبل ، فهناك نضج بين الرجال والنساء على السواء ٠ وادراك كامل من الجانبين لكل هذه الحالات ٠

ان طاقة الاسلام الداخلية ، وما له من قدرة على التجديـد قد أدهشت العالم أكثر من مرة ، سواء فى ذلك أعداء الاسلام ومحبـوه ٠ والحروب الأولية التى وسعتبسرعة كبـيرة دائرة

الإســـلام قادت الشعوب التى غزتها بسرعـــة أكثر الى مدنيـــة راقيـــة ، وعندما دارت العجلة فى اتجاه مضاد ، وغزيت بـــلاد المسلمين ، وجد الاسلام قوة كافية جذب بها الفاتحـــين ولفهم تحت رايته ، فاستفادوا منه ثقافة ومدنيـــة •

ولقـــد حـــدث فى فترات كثيرة أن نهض مجـــددون من ذوى الثقافة الاسلامية ، أعادوا النور الى المشعل الاسلامى بعـــد أن أنطفأ نوره ، وذهب ضياؤه أو كاد •

ولا تزال أمام الاسلام فرصة جيدة سانحة ـــ كأى عقيدة أخرى ـــ ليمـــد قوته ويثبت سلطانـــه فى قلوب النـــاس ، وفى اراداتهم وعقولهم •

ولكن ما هو تحت التجربة الآن هو مستقبل الجنس البشرى نفسه ، وليس مستقبل هذا الدين أو ذاك ، وهذه المشكلة الكبرى تشغل أنظار الـــكثيرين من المسلمين الآن • وكثـــيرون من ذوى العقول المفـــكرة وقفوا تفكيرهم على حـــال بيئاتهم ، من توفير الطعام ، وحرب الأمراض ، وسد الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وهذا التفكير ينبثق من العقيدة الاسلامية ومبادىء الاســـلام والناس الآن مهـــددون بانهيار الأعصاب ، وفقـــدان الارادة • وهـــو يجهـــد لوجود حلول للمشاكل التى تواجهـــه • وبتوالـــى الأزمات يتجه الفزع بالناس الى الفكر الموازى المادى الذى يعوق امتداد النظر الى المستقبل البعيد • وفى هذا الموقف تظهر العقيدة

لتمنح الرجل المسلم أمانا داخليا ، وما يمنحه الاسلام أبناءه من هذه المشاعر ليس شيئا هينا مما تسعد به الدنيا كلها،ولعله أقوى حصن يقف أمام تيار المـــادة •

الاسلام ذو رسالة عالميـــة :

هذه خلاصة كتاب رأت المؤلفة أن تقدمه بين يـــدى حديثها عن مستقبل الاسلام ، وجاء فيـــه أن البحث عن طـــرق الحياة والافكار التى تكون مناسبة للانسان ، يقود حتما الى الاســـلام فى أعمـــق مشاعره ، لأنها تقود الى اخضاع الانسان ارادتـــه لله وحده • ••وكل العقائد المخلصة ، وكل طاعة تامة للـــه تعالى فى أى مكان كانت هى فى حقيقتها روح الاسلام •

اننا نستطيع أن نجد حلا شاملا لمشاكل الانســـانية كلها فى القرآن الكريم وقوانينه تناسب مختلف البيئـــات والأجناس • وان رسالة النبى محمـــد كانت موجهة الى الناس كافـــة ، وكان انتشار الاسلام بين الناس كتمشى الميـــاه فى الأعواد الجافـــة اليابسة ، لأنـــه جـــاء فى وقت ساد فيه فساد العقائد والسلـــوك والمجتمعات ، وقـــد استطاع أن ينقذ الناس من هـــذا الفساد بهدى القرآن ، ونحن الآن نعيش فى عصر لا يختلف كثيرا عـــن العصر الذى نزل فيه القـــرآن ، واذن فصـــلاح العالم ممـــكن الحدوث اذا نحن رجعنا للقرآن من جديد •

وليس الاســـلام قصـــة دينية تتحـــدث عن النبى محمـــد

صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ، حين أعلن مبادئه فى الجزيرة العربية ، ولكنه هو رسالة التوحيد التى نادى بها الأنبياء من قبل ، ورسالة الأنبياء جميعا واحدة وهى رسالة الاسلام — ولهذا جاء فى القرآن «ان الدين عند الله الاسلام» •

ويقوم الاسلام على غرضين أساسيين :

أولهما هو أن يخلص عقل الانسان وروحه من أغلال المادة ، وأن يحول بينه وبين الخضوع لمخلوقات لا تملك أكثر مما يملك هو •

وثانيهما هو أن يهديه الى الهدف الصحيح فى حياته وهو نقاء السريرة وصفاء العقيدة نحو الله تعالى ،ونحو ما يجب عليه لأخيه الانسان •

وهذان هما المصدران الأساسيان للروح الاسلامى •

وفى الوقتالذى نعيشه الآن نجد هذين المبدأين يشيران الى عالمية هذا الدين • لأن العالم كله يعوزه أن يتعرف على هذين المبدأين •

* * *

ثم جاء فصل آخر للحديث عن الرابطة الاسلامية بمكة وأنواع نشاطها والمؤتمرات الاسلامية التى أقامتها • وجاء فى هذا الفصل ما يثبت أيضا عالمية الاسلام •

ان الاسلام ليس بحاجة الى تجديد ، انه جديد ومتطور

دائما ، انه بتأكيده على الفهم والتعقل وعلى التسامح ، قدير على التقدم الى الامام بالانسانية كما كان قديرا على ذلك من قبل وهو بتأكيده وجوب المعرفة جدير أن يواجه مشكلات العالم الحديث ــ وبهذا نجد الاسلام سيظل الى الأبد قوة دافعة للتمدن والحضارة .

ونحن اذا نظرنا نظرة عميقة تنفذ الى ما تحت السطح ، نجد أن شيطان المادة هو الذى يقوم بدور الفساد . وكلتا الكتلتين الرئيسيتين فى العالم الآن من عباد المادة .

ولقد قال الشيخ جمال الدين الأفغانى من قبل : « ان النضال فى العالم الآن هو أساسا نضال بين الدين والمادة » . ونحن أتباع الاسلام نرحب بكل جهد يبذله المؤمنون بالله ، وبكل القيم الروحية فى كل دين . وان الماديين والالحاديين والذين ينكرون القيم الروحية ، انما يهددون سلام العالم ، والوجود الآمن المطمئن ، لبنى الانسان .

وهذه العناصر التى ألم بها المؤلف تؤكد حقا عالمية الاسلام وحاجة الناس جميعا اليه . وهذه الحاجة ــ وان لم يلتفت اليها المؤلف ــ قد تقود العالم الى أن يتجه الى الاسلام .

وهذا كما يؤكد عالميته يبعث فى النفس الأمل فى شيوعه وانتشاره ، فهو دين عالمى ، ويرجى له مستقبل زاهر ، وانتشار بعيد .

الانسان والطبيعة :

تقدمت العلوم الطبيعية والبحوث الكونية الآن تقدما عظيما ولكن تقدمها على يد الأوروبيين يختلف فى نتائجه عن تقدمها على أيدى المسلمين فيما سبق •

ففى القرون السابقة نمى المسلمون بحوثهم فى الطبيعيات وقد منحوا أوروبا من هذه المعارف ما بنت به نهضتها الحديثة ونمتها ، وقصة هذا الموضوع متعددة الجوانب اذ هى لا تقف عند فرع واحد من العلوم ، ولا طريقة واحدة من البحث والتجارب ، ويكفى أن نتذكر من هذا الدين — دين أوروبا للعرب — أن العرب خلصوا الأرقام الحسابية من الطريقة الرومانية العتيقة المعقدة المضللة ، ومع ما لهذه الطريقة من فضل فى الرياضيات هى ليست أقوم ما أخذ الأوروبيون عن العرب • لقد تعلموا منهم الرياضيات ، والكيمياء ، والصيدلة ، والبحرية والفلك ، وتركيب الأدوية • • • الخ ونقل العرب اليهم هيكل المعرفة ، وآلات التجارب التى نماها علماؤهم ، وكونوا منها عناصر النهضة الأوروبية •

والآن أصبح الأمر على غير ما كان •

أصبح العرب الآن هم الذين يتعلمون التكنولوجيا والمهارة الفنية التى أخضعت الطبيعة خضوعا كبيرا ، ولكن العرب فيما بذلوا من مجهودات كبيرة لحماية العالم من التخريب الذى

صحب تطبيق هذه المستكشفات ، لا يزالون يمدون الغرب بمنح أكثر • ان مراعاة ما لحياة البشر من حرمة وتقدير • ووحدة النظرة التفاؤلية الى المستقبل ، والرحمة بالمخلوقات عامة انما هى من جوهر المبادىء المسيحية والاسلامية جميعا • ولكن هذه النظرة مع الأسف ــ قد ذهبت مع تفرق الفكر الغربى ، واختلاف الحياة بين شعوبه •

لقد أصبح الانسان الآن نهابا لبيئته الطبيعية ، بدلا من أن يكون راعيا لها ، وبدلا من أن يرعى خلافته لله على الأرض • لقد امتص منها كل ما يريد ولم يدعهاتنعم بالأمن والاطمئنان •

اذا لم يضع الانسان هذه الصلة اساسية فيما بينه وبين الكون فى وضعها الحق ــ الذى يقره الدين ، فانه لا أمل فى السلام ، ولا توقع لاستمرار الحياة

هناك أشخاص قليلون جدا يقبلون النظر الى الحقيقة الماثلة ويرون أنه لايمكن أن يستقر السلام فى مجتمع انسانى طالما أن النظرة الى الطبيعة والبيئات العامة قائمة على العدوان والحروب ولكى يصل الانسان الى السلم مع الطبيعة ، لا بد أن يكون هناك سلام مع الحياة الروحية ، ولا بد أن تكون هناك مراعاة للحقيقة الانسانية العليا الخالدة ، التى هى فى الواقع ينبوع للقيم الانسانية •

والشخص المسلم يرى أن تقدم العلم الحديث ، وتقدم

المستكشفات فى هذا الكون لا يمس الايمان بوجود الله خالق هذا الكون ومودعه هذه الاسرار ، بل على العكس من ذلك يرى أن كل استكشاف يجد يكشف أكثر وأكثر عن عظمة هذا الكون وعن جلال خالقه وعظمته . سبحانه وتعلى .

ويوجد فى القرآن الكريم آيات كثيرة يمكن أن تشرح على أنها منبئات عن تقدم العلم الحديث ، كما أن به آيات تحث على التعلم والبحث فى خفيات هذا الكون ، ولكن ما هو أكثر أهمية من كل ذلك — هو أن القرآن يبارك ويوصى بحسن استعمال هذه المستكشفات ، ويدرك هذه الحقيقة من يعمل فى معمله مصاحبا القرآن الكريم ، اذ يشعر أن بجانبه سنادا يجعله أسمى من تلك الآلة التى يستعملها فى ترتيب العناصر الكيمائية والصيدلية ، وكذلك يحس هذا الاحساس مدرس الطب فى جامعة الأزهر الذى يؤيد الباحثين الطبيعيين .

وليكون أى من هذين ذا أثر فعال لابد أن يرعى كمال العقيدة والايمان،وما توحى به من تقدير للخالق الأعلى،ومثل هؤلاء القوم يستطيع أن ينظر الى الماضى فيدرك أن الحضارة الاسلامية كانت تحمل المشعل لهداية الباحثين فى العلوم الطبيعية الى قرون طويلة .

ولكى نعمل شيئا لعلاج الأزمة الروحية التى يواجهها انسان العصر الحديث ، لا بد من تغيير جذرى فى الفكر الغربى ، فقد

تطورت الثورة العلمية والصناعية بعيدة عن جو المسيحية ، وما تدعو اليه من رحمة وبر بالانسان ، ولقـــد ذهبت الوصايا التى قررها الدعاة على يـــد جماعة من رجـــال الدين المتأخرين الذين أغضوا نهائيا عن علوم الطبيعة واعتبروا خـــلاص الانسان فى اهماله كل ما خلـــق اللـــه .

أما الاسلام فلا يغضى عن شىء فى هذا الـــكون ، ويرى أن الحياة الروحيـــة تساير الحياة الصناعية والزراعية ، وتصاحب العامل فى معمل الطبيعة ، والمهندس فى المصنع وحقل التجارب ، وفى سفينته تمخر عباب البحر ، وطائرته تقطع أجواز الفضاء .

والتأمل فيما خلق الله عبادة ، اذ هو ادراك لبديع صنعه ، وتقدير لعظمة الله وضعف الانسان . واستكشاف الانسان عنصرا مجهولا أو قوة خفية فى هذا الكون مما يزيد ايمان المسلم ، ويثبت عقيدته فى ربه أو لم يأمره القرآن أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ؟

واذا كانت المسيحية وهى القائمـــة على الدعوة الروحيـــة البحتة ، قد عجزت عن سد الفجوة بين الانسان الصناعى والحياة الروحية ، لأنها أمرت بالاغضاء عن المخلوقات الأخرى ، فـــان الاسلام كفيل بسد هـــذه الفجـــوة .

ولقد سئم العالم الآن الحروب وما تجره على البشرية من دمار وشقاء ومعاناة . ولعل الخلاص الوحيد له هو الرجوع الى

تعاليم الاسلام ــ فهو دين السلام وقد ورثت حروبه العالــم مدنية راقية ، وحضارة مهذبة ساميــة •

صفــات عــامة :

فى الملحق الذى ذيلت المؤلفة به هذا الباب وختمت به الكتاب ألمت بصفات عامة عن حاضر العالم الاسلامى ولمحات عن مستقبله ورجعت فى هذا كله الى الأستاذ عبــد الخالق حسونة الذى كان اذ ذاك أمينا عاما لجامعــة الدول العربية • وهــو ثانى شخص يتولى هذا المنصب بعد الأستاذ عبد الرحمن عزام ــ وقد عرفت المؤلفة به تعريفا موجزا ، وذكرت أنه درس القرآن فى قريته ، وحصل على شهادة الحقوق من جامعة كمبردج ، ثم حصل على دكتوراه فى العلوم من جامعــة هارفارد ، وربمــا دراسات فى الادارة ، وهو بهذا الازدواج فى ثقافته ، تمت لديه فكرة السياسة والاقتصاد وحسن التفاوض ، وقد قابلتــه المؤلفة فى بــيروت سنــة ١٩٦٨ حيث كان يرأس مؤتمرا لجامعة الــدول العربيــة هنــاك •

أما الأسئلة التى وجهتها اليه فلا تتصل مباشرة بمستقبــل العالم الاسلامى ، ولكنها غير بعيدة عنــه •

وأما الاجابة فــكانت غاية فى اللباقة والدقة • وكمــا تقول المؤلفة ان حياته القرآنية الأولى لم تفارقــه •

ولسنا نعرض هنا كل الأسئلة التى وجهت اليه ولكننا نختار بعضا منها • وأيضا نختصر اجابته مع المحافظة على روحها •

كان السؤال الأول عن الأسس التى تقوم عليها وحدة العالم الاسـلامى •

وحصرتها الاجابة فى ثلاث نقاط :

(١) ان تعاليم الاسـلام ترجع الناس جميعـا — وليس المسلمين وحدهم — الى أصل واحد ، وهو آدم أبو البشر جميعا — وهم بهذا يغضون عن فوارق الجنس ، واللون،والدم،واللغة ، والقوميـة •

(٢) ان كل مسلم يشعر أنه عضو فى الأمة الاسلامية ، وهذا الشعور يدفعه الىمزيد من التعاون وبذل الجهد لخير الآخرين ، وهذا باد فى الحـديث الشريف «ترى المسلمـين فى توادهـم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سائر البدن بالحمى والسهـر » •

(٣) أن الاسـلام يعارض أى مبالغـة أو تباه بالارض أو الجنس أو القبيلـة وانه يعلم أن الأرض كلها وطـن للانسان ، والناس جميعا عيال الله ، ولكن ما يستحق أن يعتز به الانسان انما هو التقوى والعمل الصالح لله رب العالمين ، وقد جاء هـذا فى بيت من الشعر يقول صاحبه :

أبى الاسلام لا أب لى سواه   اذا فخروا بقيس أو تميم

وكذلك جاء فى القرآن الكريم (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) (١)

وبعبارة أخرى ان الاسلام يخلص المسلم من قيود التعصب والزهو والغرور . وهذا يجمع المسلمين جميعا الى التصور الحقيقى للاسلام ، وهو الطاعة التامة لله ولرسوله .

ولهذا فان الوحدة التىتنتج عن الاسلام انما هى أسس طبيعية لوحدة ثقافية ، وتمهيد لوحدة ثقافية عامة .

وأما السؤال الثانى ، فكان مبنيا على السؤال السابق ، وهو كيف يستطيع العالم الاسلامى أن يسهم فى مستقبل الثقافة ؟

وخلاصة الاجابة ما يلى : —

لقد كانت الثقافة الاسلامية ذات المكانة العليا فى العالم لمدة تربو على الألف من الأعوام، وقد نقلها العرب منالجزيرة العربية التى هى مهد الاسلام الى معظم أجزاء العالم المأهول فى هذا الوقت وقد تلقاها عنهم الفرس ، والروم ، والهنود ، والمصريون وغيرهم من الأمم التى كانت قبل حضارة الاسلام قد أنشأت حضارات مادية ، ولكنهم استفادوا من مبادىء الاسلام التى

(١) سورة التوبة الآية ٢٤

منها المساواة ، والعدالة والتآخى ، والتسامح ، والرحمة كمـا استفادوا من دعوته الى الاستزادة الدائمة من العلم وتشجيعـه على الأعمال المفيدة بوجه عام • كما أن المسلمين من جانب آخر نقلوا فروعا معينة من علوم الأمم التى غزوهـا •

كانت هذه المدنية المادية التى نمتها هذه الأمم — عالية جدا بالنسبـة لما كان عليه العرب قبل الاسـلام ، ولكن بمزج هذه الحضارات بالحضارة الروحية الاسلامية استطاع المسلمون أن ينشئوا دولة حديثة تقوم على هذا التوازن والمزيج من الروحية والمادية • وعمل الخلفاء من جانبهم على تشجيع الترجمة الـى العربية ، فترجمت كتب تحوى أنوعا شتى من العلوم والفنـون وقدمت كلها الى الجامعات الاسلاميـة •

ولم يقف المسلمون عندما نقلوا من هذه العلوم والفنـون ، بل أضافوا اليها اضافات واسعة نمتها ووسعت دوائر بحثها — ويقرر المؤرخون أنه لولا هذه الاضافات لكانت الفجوة واسعة بين الحضارة القديمة والحضارة الحديثة •

لقد قدم المسلمون ثقافتهم وحضارتهم الى العالم كله ، ذلك أن جامعاتهم كانت منتشرة فى الشرق والغرب ، ونخص بالذكـر جامعات أسبانيا ، تلك التى أمها طلاب العلم ومحبوه ، الذيـن جاءوا من الدول الأوروبية ليرووا ظمأهم الى العلوم والمعارف

وما نقلوه من هذه الجامعات الى بلادهم كان هو المشعل الــذي استضاء به رواد النهضة الأوروبية الحديثة •

وعندما جاءت فترة التدهور والانحطاط واستولى الأوروبيون على البلاد العربية ، كانت بذور الثقافة الاســلامية قد نمــت وأثمرت ، واستفاد منها الأوروبيون فى حقول الطب ، والهندسة والفلك ، والموسيقى ، والزراعة • • • •وغيرها ، ولكنهم فى هذا الدور اتخذ الأوروبيون هــذه العلوموسائل لسيادتهم وتفوقهم على الشرقيين • ولم تكن معلوماتهم فى هذه الميادين العديدة الا نتيجة تعرفهم على العلوم التجريبية التى يؤكد مؤرخو العلوم أن علماء العرب كانوا روادها الأول •

وربما لا يكون من المتضح البين أن يصنف المسلمون فى الوقت الحاضر مــدنية الى الغرب ، لأنه أرقى وأكثر تقدما من الشرق فى جانب الصناعات والعلوم ، ولكن يجب أن نتذكــر أنها حضارة عالمية ، وأنها أسس اشتركت فى وضعها جميع الأمم التى أسهمت فى تنمية الحضارة ورقيها ، ولكن روح هذه الحضارة وعنصرهــا الأساسى لم ينقل الى أوروبا الا بواسطة الحضارة الاسلامية •

هذه الحقائق تساعد فى توضيح الاجابة على السؤال السابق

ليس هناك جدال فى أن الحضارة الاسلاميــة التى سادت العــالم أكثر من ألف عام ، قــد قدمت نواة الحضارة المعاصرة للأوروبيين • ولكن هذه الأخيرة تبنت الجانب المادى وحده ، ثم

أعلنت أنها حضارة مستقلـــة منبتة عن الحضارة السابقـــة ، ثم تغالت فى كبريائها لأنها استطاعت أن تخضع كثيرا من القـــوى الطبيعية بواسطة التكنولوجيا والعلوم الحديثة ، ثم استطاعت أن تسيطر على قوى هائلة فى الأرض والجو ، ثم تمـــكنوا بهـــا من غزو الفضاء وارتياد بعض الكواكب ، وتناست أن نواتهـــا عربية ، وأنها لم تكن الا تنمية واستثمارا لمـــا غرس العـــرب المسلمـــون •

واذا قدر لهـــذه الحضارة أن تستولـــى على العناصر التى ميزت البقعة الاسلامية • فلا بد أن تنشد الســـلام القائم على العدل ، ولا بد أن تنبذ الاستعمار والتوسع ، والتوسع العنصرى ووجود الطبقات الكادحة المقلة ، كما تتخلى عن المادية وسيادة الآلـــــة •

وأول شىء أضافه الاســـلام ليبنى العالم المتحضر ، يـــكمن وراء عقيدته الاسلامية ، بما فيها من ايمان بسيادة الله وحده ، وبالرحمة ببنى الانسان ، وبالقيم الأخلاقية عامة •

والاضافة الثانية توجد الآن فى الطريق الذى تحييه الشعوب الاسلامية وتقدره ، وهو ما تدعو اليه هيئة الأمم المتحدة ، وهو المناداة بحقوق الانســـان •

والأمر الثالث هو سياسة الحياد الايجابى ، وعدم الانحياز لأى من الكتلتين الكبيرتين اللتين تتنازعان العالم الآن ، وتبـــنى

هذه السياسة يعكس الرغبة فى بناء السلام ، ورعاية الحضارة من تدمير الحروب فى هذا العصر الغامض .

ان المفكرين الاسلاميين المعاصرين ورجال العلوم الحديثة من المسلمين يعملون فى الوقت الحاضر على اعادة الحضارة الاسلامية ، وعلى أن تستأنف دورها فى دفع العالم المتحضر الى تقدير القيم الأخلاقية والانسانية . ومن الوسائل التى تتخذ لهذا الغرض أن تعرض الحضارة الاسلامية فى ثوب جديد وأن تشرح بأسلوب مبتكر جذاب .

ونظرا لأن العالم الاسلامى يحتل مكانا جغرافيا وسطا بين الشرق والغرب ، فان ذلك يساعد كثيرا على تقريب الحضارات والمذاهب بعضها من بعض ، كما يمهد الطريق للتوفيق بينها واختيار الأفضل من كل .

* * *

وكان السؤال التالى : ماذا عسى أن يقوله الاسلام للعالم الطبيعى الذى لا يقر بوجود الاله ـ سبحانه وتعالى .

وكانت الاجابة أنه يوجد لدى الاسلام صور كثيرة من محاجة الملحدين ، وأكثرها يعلن فى صورة علمية ، والاسلام يعتمد فى محاجاته دائما على العلم والمنطق . وطبقا لتعاليم القرآن الكريم نجد أن العلوم ذات معنى واسع ومعتمدة دائما على الأسباب والمسببات وهو فى الواقع أمر ثقاف ينطبق على الماديات

والمعنويات معا ، وبدون التصور الأخلاقى لا توجـــد معلومات ذات جدوى عن الذرات المادية ، أو القوانين الطبيعية أو النسب الرياضيـــة •

وأول أمر جاء فى القرآن الكريم كان أمرا بالقراءة ، ومن ثم كان أمرا بتحصيل العلوم والمعارف ، والدين والعلوم شىء متحد فى الاسلام ، ذلك أن الاسلام يدعو لتعلم العلوم المادية والروحية على السواء،وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم نفسه فى القرآن الكريم أن يدعو اللـــه تعالى أن يزيده علما ، يشير الى الآيـــة : (وقل رب زدنى علما) (١) •

كذلك جعل القرآن العلماء شهداء مع الله والملائـــكة • فجاء فيه : (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائمـــا بالقسط لا اله الا هو العزيز الحـــكيم) (٢) •

ولكى نقيم البرهان على وجود الله تعالى ، ونؤكد وحدانيته ــ سبحانه ــ اتخذ القرآن خوارق الطبيعة وسيلة لتحقق وجوده سبحانه وعظمته • تماما كما يستخرج علماء الطبيعة قوانينها من تجاربهم ــ فالقرآن يجعل الكون كله معملا للتجارب العلمية التى ينتج عنها بوضوح وجـــود الخالق الواحد ، الأحـــد ، سبحانه لا شريك له •

الله واحد لأن نظام الخليقة يدل على أنها من عمـــل صانع

(١) سورة طه الاية ١١٤
(٢) سورة آل عمران الاية ١٨

مقتدر ، ذلك أن قوانين الطبيعة ليس فيها تضارب (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (١)

ان انكار وجود الله تعالى هو الذى يحتاج الى أدلة وبراهين، أكثر من الايمان بوجوده سبحانه • انه من المستحيل أن نفهم أن الطبيعة ، وهي مصدر الحكمة والمعرفة — قد وجدت هكذا تلقائيا ومن غير موجد مسيطر عليها ، وهو الذي يسيطر على كواكبها ، ويلائم بين قوانينها العامة •

والعلماء الطبيعيون منهم من أنكر وجود الله ،لأنهم تحدثوا عن الله تعالى كأسطورة أو صور خرافية لا يقبلها العقل • أما القرآن فيعتمد فى حديثه عن الله تعالى على العقل وحده — وأدلته منتزعة من تصريفه هذا الكون•ومن خلال الأدلة العقلية وحدها ، يمكن أن نستدل على وجوده وكماله ، وأن نجد توكيدا لهذه الحقيقة •

هناك أشخاص استولى عليهم الضلال فى هذا العصر ، حتى حسبوا أنهم هم أنفسهم آلهة ورجعوا الى أنفسهم فى كل شىء، ولم يدعوا لله شيئا •

هؤلاء القوم يبدون كأنما نسوا أن الانسان لم يخلق نفسه ، وأنه لم يكن له اختيار فى ميلاده ولا فى موته ، وأنه لا يستطيع أن يهرب من قبضة الله ولا يستطيع أن يصنع أى

(١) الأنبياء الآية ٢٢ ، ولم تأت فى كلام الكاتب ولكنا أثبتناها •

شيء فى عقلية البشرية . وأن الله تعالى قد أنشأ فى هذا الكون آلات تعمل بمهارة فائقة ، لا يستطيع الصناعيون أن يعملوا مثلها . والمقياس الذى نضبط به تفكيرنا هو أن نتذكر أن الانسان لا يمكن أن يفر من العدالة .

وحتى لو توصل الانسان الى ما يصنع به كل شيء فان هناك سؤالا أبديا يلح على ذهنه « من الذى أوجدنى » ؟ .

من أنا ؟

ما أعظم هذا الكون ! —

من ترى أوجده ؟

والى أى مدى سيظل ؟

***

سؤال :

ان الاسلام يأمر بالحرب المقدسة وهى الجهاد ، كما أنه يعد أيضا بالسلام .

فلأى شيء يحارب الاسلام ؟ وضد أى شيء يحارب ؟

اجابة :

الاسلام يقصد بالجهاد تأكيد حرية العبادة ، ومنع الانشقاق الدينى وتأمين حياة المستضعفين . كل ذلك من خلال وصايا الله سبحانه وتعالى .

انه يهدف الى توصيل نداء الاسلام الى جميع الناس ، ولهم الحرية فى أن يتبعوه أو لا يتبعـــوه •

والذى يقف الاسلام ضده هو استعمال القوة لفرض ديانة معينة ، أو بذر الشقاق والتفرقة بين الناس ، ثم أى ضغط على الجماعات المستضعفة لانقاصها حقوقها •

وهذا مذكور فى آيات قرآنية كثيرة :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمــوا) (١) •

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا)(٢)

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (٣)

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) (٤) •

وانه لواضح من هذه الآيات أن الاسلام يأذن بالحروب فقط لحماية العقيدة ، ولوصول دعوة اللـــه الى الناس بدون اكــراه على قبولهــا •

وهذا يوضح أن الاسلام لم يفرض بحد السيف كما يدعى خصومه • وقد دخل الناس الاسلام بمحض رغبتهم لأن الحياة التى هيأها لهم كانت أفضل من الحياة التى كانوا بها من قبل •

(١) سورة الحج الآية ٣٩ (٢) سورة البقرة الآية ١٩٠
(٣) سورة البقرة الآية ١٩٤ (٤) سورة البقرة الآية ١٩٣

وقد غزا المسلمون الأقطار الأخرى لتبليغ دعوة اللــه الى النـــاس فى كل مكان يمكن أن يبلغوها ٠ والذين ظلوا على دينهم الأصلى لم يقهروا على اعتناق الاسلام ، ولا يزال الى الوقت الحاضر توجد أقليات بين الشعوب الاسلامية على دياناتها التى كانت قبل الاســـلام ـــ يهودية أو مسيحية ، وهم يمارســـون عباداتهم تحت حماية الاســـلام ٠ والاسلام يندد بعقوبـــة أى شخص يتعرض للكتابيين أو المعاهدين ٠ ولو أن الاسلام لم يحم هذه الأقليات ما كان لها وجود حتى الآن بين المسلمين ٠

ولقد امتد الاسلام الى الصين وماليزيا وأندونيسيا والفلبين من غير أن يكون هناك أى حروب ، وكذلك انتشر بين بلاد افريقية كثيرة بواسطة الاقناع وحده ٠

***

كيف كان تعامل النبى محمد صلى الله عليه وسلم مع الفرائق العربيـــة ؟

كان النبى محمـــد صلى اللـــه عليه وسلم هو المثـــل الأعلى للشخصية المتكاملة ، ودراسة شخصيته شىء فاتن جذاب ، وحتى من خلال الجوانب الانسانية : بساطته ، وعمقـــه ، وتواضعه ، وحبه للانسانية ، وتسامحه ٠ كلها تبين أنه عقل يمثل فضائل الله التى وهبها لبنى الانســـان ٠

ولهذا قال فيه القرآن : (وانـــك لعلى خلق عظيم) (١)

كما قال : (وكان فضل الله عليك عظيما) (٢)

لقد كان نموذجا يحتذى فى طفولته ، ورجولته،وفى كونه زوجا وأبا ، وابنا ، وتاجـــرا ، وقائدا ونبيـــا ، ومعلما ، ومشرعـــا ، وصديقا ، وحاكما ، ومحبا ، ورفيقا كريما •

كان العرب مقسمين الى عشائر وقبائل ، يحارب بعضها بعضا لأدنى سبب ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم واجه هذا الوضع بأن ثبت الدعوة الالهية فى عقول هؤلاء القوم وقلوبهم — وهذه الدعوة عرفتهم أن الله — تعالى — خلق الناس شعوبا ليتعارفوا ويتعاونوا ، وليس ليحارب بعضهم بعضا ، بل ليكونوا اخوانا فى الأصل وفى العقيـــدة

لقد أراهم النبى أن الانتقام والعداوة والبغضاء انما هـــى صفات الكفار ، وليست صفات المسلمين ، ولهذا يجب أن تطرح جانبا ، وأن تتطهر قلوبهم منها نهائيا •

وليس من شـــك فى أن رقة النبى صلى اللـــه عليه وسلـــم وعواطفه الرحيمة وعقليته المتفتحة كانت أداة هيأها الله تعالى لتوحيد العرب المنقسمين •

---

(١) سورة القلم الآية ٤ (٢) سورة النساء الآية ١١٣

ولقد أهدى القرآن الى العرب هذه الوحدة ، لأنه أزال من قلوبهم نعرة الجاهلية ، التى كانوا عليها قبل بعثة الرسول اليهم .

وكذلك خلق التعـالى والتـكبر الذى ورثوه عن آبائهـم وأجدادهم السابقين . فاستحثهم الله تعالى أن يتواضعوا وألا يتعالى بعضهم على بعض . وبهذا بث فى نفوسهم تبادل الاحترام ومراعاة الحقوق .

***

هل هداية الله للانسان شىء مجرب حقـا ؟

لا شك فى ذلك أصلا !

انه من الثابت المؤكد أن الله رحمن رحيم ، وهو سبحانه يريد الخير للمخلوقين ــ (وما كان الله ليضيع ايمانكم) (١)

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنـا) (٢)

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله أرحم بعباده من الأم بولدها » (٣) .

ان الله سبحانه وتعالى ــ هو الذى هدى الانسان خـلال القرون الطويلة ، وعندما خالف الانسان الأول أمر ربه أنزلـه الى الأرض ، ولكن ظلت هدايته معه . وعند ما ارتكب الانسان

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٩

(٣) لم يذكر الكاتب مرجع الحديث ولم نحقق نصه .

الاثم (تلــقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التــواب الرحــيم) (١) ٠

(فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلايضل ولايشقى٠ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) (٢)

وعندما بلغ الانسان حد النضج فى ثقافته ، أهداه الله آخر كتاب أنزله ، وهــو النور الدائم ، والهداية الباقية ٠ ذلك هــو القرآن الــكريم ٠

ومن هداية الله أيضا لعباده أنه منحهم العقل المفكر ٠ وبــه خلال قواعد العلوم ، تهدوا الى أسرار الطبيعة ، لقد جعل اللــه الطبيعة مذللة للانسان انه من المستحيل أن نعتقــد أن الانسان قد ارتقى بفــكره حتى غزا الفضاء وحطم الذرة بدون هداية الله تعالى وعــونه ٠

ان المستكشفات الحالية والمستقبلة ، انما هى تأييد لمــكانة الانسان فى هذا الكون ، وهذه قد شرحها جميع الانبياء من قبــل خلال الوحى الالهى ٠

والعــلوم الحديثة تدل على مســاعدة الله تعالى وهدايته للانسان فى حياته ، ولولا هذا العون الالهى ، لظلت الطبيعة سـرا مكتمــا ٠

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٧

(٢) سورة طه الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤

انهُ دينَ اللّهَ هوَ الذى هَدىَ الانسان فى عُصور الجَاهلية .

انه العلم الممنوح من الله للانسان . هو الذى أعان عقليته على التقاط ما توصل به الى النــور والقــوة .

ولهذا فان العلم الحديث يجب أن يستحث الانسان أن يعبد الله مستعينا بالمنطق والتفكير ، بينما يستحثه الدين أن يعبــده بالروح والقلب . أ هـ

* * *

هذهٔ لمحات عابرة من كتاب تزيد صفحاته على المائتين .

ولــم نتعرض لما جاء فيــه عن التصوف والفلسفــة ، ولم نستقص كل أبــوابه ، ولا كل باب تعرضنا لــه .

وحسبنا مما عرضنا أننا أبرزنا جوانب دفاعية عن الاسلام .

وبعـــد

هذه عجالة عن بعض الكتب الاستشراقية ، تظهر اونين من جوانب التفكير الاستشراقى — وليس هذا أول عهدنا بما كتب المستشرقون ، كما أنه لن يكون آخر عهدنا بهم .

واذ قد تبينا أننا أمام فجر يتنفس بشىء من جـدة البحث وجدة الدرس لتاريخ الاسلام ونصوصه ، فاننا نرجو أن يكون فجرا صادقا ، فان لم يكن ثم فجر فان علينا أن نضىء المشاعل التى تبدد هذا الظلام أمام أعين الأوروبيين .

ولعل فى حديثنا عن المستشرقين ما يدعـو الى الحديث عن المبشرين ، فاذا كنـا نحن المسلمين أسرفنا فى التهـاون ازاء الدعوة لديننا ، والتعريف به ، وتوضيح حقائقـه ، فان المبشرين قد أسرفوا فى النشاط لكيد الاسلام وطمس حقائقه ، ولفت الناس عنه ، أو تنفيرهم منه . والتبشير والاستشراق عملان متعاونان وكثيرا ما استعان المستعمرون بعمل أولئك وهؤلاء .

ولا ريب أن دحض الشبهات التى تثار من أى من الجماعتين نوع من الجهاد الذى يجب على كل قادر عليه أن يقوم به ، وان علينا أن نواجه القوم بكل ما نستطيـع .

والحق وحده قوة يكفى اعلانها . ولكن القوم تعاونوا وهم

على باطل ، وتخاذلنـــا ونحن على حق • وقد أصبحت ميـــادين الجهاد الآن كثيرة ، وأسلحة العدو منوعة ، وثغرات الهجـــوم عديدة مفتحة ، ولكن يكفى لهذا كله أن نصـــدع بصوت الحق ، ونرجع الى القرآن الكريم وسنة رسول الله •

ونسأل اللـــه تعالى أن يهدينا ، ويقوى عزائمنا ، ويتقبـــل ما نعمله بقبول حسن منه ، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل •

وصلى الله على سيدنا محمـــد النبى الأمى خاتـــم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه   والحمد لله رب العالمين

انتهى بالقاهرة فى ذى الحجة سنة ١٣٩٧ هـ
ديسمبر سنة ١٩٧٧ م

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ١٩٧٨/٢٣٣٧

طبع بمطابع الأزهر

الكتاب القادم

السنة الشريفة ومكانتها فى الاسلام

لفضيلة الامام الأكبر
عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

الثمن ٢٠ قرشا
طبع بمطابع الأزهر

